البير كامو

رواية



الموت السعيد

دار الآداب

ألبير كامو

الموت السَّعيد

ترجمة عايدة مطرجي إدريس

رواية

دار الآداب ـ بيروت



الموت السعيد

الموت السّعيد

ألبير كامو / كاتب فرنسي
طبعة عام 2014
ISBN 978-9953-89-375-4
La Mort Heureuse

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com





/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

القسم الأوّل

الموت الطبيعي




MOHAMED KHATAB

الفصل الأوّل




MOHAMED KHATAB



كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكان باتريس مرسو يسير بخطى منتظمة نحو دارة زغرو. في هذه الساعة، كانت الممرّضة قد خرجت إلى السوق، والدارة مقفرة. كان ذلك في نيسان، في صبيحة ربيعيّة جميلة متلألئة وباردة، ذات زرقة صافية ومثلجة، وشمس ساطعة باهرة ولكنّها من غير حرارة. أمام الدارة، وبين الصنوبرات التي تغطّي الكثبان، كانت أشعّة صافية تسيل على الجذوع. وكانت الطريق مقفرة. تصعد قليلاً. ومرسو يحمل حقيبة بيده ويتقدّم في هالة هذا الصباح العالمي، مخترقًا صوت خطاه الجافّ على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم.

قبل الدارة بمسافة قصيرة، كانت الطريق تنفتح على ساحة صغيرة مليئة بالمقاعد والحدائق. وكانت نباتات إبرة الراعي الباكوريّة الحمراء وسط الأصبار الرماديّة، وزرقة السماء وجدران السور المطليّة بالكلس، كان ذلك كلّه من الغضاضة والطفولة بحيث جعل مرسو يتوقّف لحظة قبل أن يستأنف الطريق الذي ينحدر من الساحة نحو دارة زغرو. توقّف أمام العتبة ولبس قفّازيه، وفتح

الباب الذي كان العاجز قد تركه مفتوحًا وأغلقه بالطبع. وتقدّم في الممرّ حتى إذا بلغ الباب الثالث إلى اليسار دقّ عليه ودخل. كان زغرو قابعًا هناك، على مقعد، وعلى جدعات ساقيه غطاء، أمام المدفأة، تمامًا في المكان الذي احتلّه مرسو ليومين مضيا. كان يقرأ، وكتابه يستقرّ على غطائه، بينما كان يحدّق بعينيه المستديرتين اللتين لم تكونا تنمّان عن أيّة دهشة بمرسو الواقف الآن أمام الباب المغلق. كانت ستائر النوافذ قد سُحبت، وعلى الأرض وعلى الأثاث وعلى زاوية الأشياء استقرّت بركٌ من الشمس. وخلف النوافذ، كان الصباح يضحك على الأرض المذهّبة والباردة. فرح كبير مثلج، وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق وفيض من نور لا هوادة فيه، تضفي كلّها على الصبيحة وجهًا من البراءة والحقيقة. توقّف مرسو وأحسّ بحرارة الغرفة الخانقة تأخذ بخناقه وأذنيه، فبالرّغم من تبدّل الطقس، كان زغرو قد أشعل نارًا لاهبة، فأحسّ مرسو بدمه يصعد حتى صدغيه ويضرب أطراف أذنيه. وكان الآخر، صامتًا ما يزال، يتابعه بعينيه. مشى باتريس نحو الصندوق من الناحية الأخرى للمدفأة، ومن غير أن يلقي نظرة على العاجز، وضع حقيبته على الطاولة. وإذ وصل هنا، أحسّ بارتعاش خفي عند عرقوبيه، فتوقّف ووضع في فمه لفافة أشعلها بطريقة خرقاء بسبب يديه المقفّزتين. سمع حركة خفيفة وراءه. التفت واللفافة بعد في شفتيه. كان زغرو ما يزال ينظر إليه، ولكنّه كان قد أغلق اللحظة كتابه. وبينما كان مرسو يحسّ بالنار تلهب ركبتيه حتى الألم، كان يقرأ العنوان مقلوبًا «رجل البلاط» لبلتازار غراسيان. انحنى من غير تردّد على الصندوق وفتحه. كان المسدّس يلمع بجميع منحنياته، سوادًا على بياض، كقطّ معتنى به. وكان مرسو ما يزال يمسك

برسالة زغرو بيده اليسرى والمسدّس باليمنى. وبعد تردّد، دسّ السلاح تحت ذراعه اليسرى وفتح الرسالة. كانت تحتوي على صفحة واحدة من ورق كبير القطع مغطّاة ببعض الأسطر فقط بخطّ زغرو الكبير المقرّن:

«إنّني لا أقتل إلّا نصف إنسان. وبودّي أن لا يحمل أحد عليَّ ضغينة من ذلك وأن يجد في صندوقي الصغير أكثر ممّا يلزم للتعويض على أولئك الذين خدموني حتى الآن، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ بي رغبة في أن يكرّس لتحسين نظام المحكومين بالإعدام. ولكنّي أشعر أنّ ما أطلبه كثير».

طوى مرسو الرسالة وهو منقبض. وفي تلك اللحظة، أتى دخان سيكارته يخزّ عينيه بينما كان القليل من الرماد يتساقط على المغلّف. نفض الورقة، ووضعها بشكل بارز على الطاولة، واستدار ناحية زغرو. وفي هذه الأثناء، كان زغرو ينظر إلى المغلّف بينما ظلّت يداه القصيرتان العَضِلتان تحيطان بالكتاب. انحنى مرسو وأدار مفتاح الصندوق وأخذ حزمة الأوراق التي لم يكن يُرى منها سوى حافّتها من خلال غلافها المصنوع من ورق الجرائد. وفيما كان سلاحه تحت ذراعه، ملأ بيد واحدة حقيبته بانتظام. كان هناك أقلّ من عشرين رزمة من فئة المئة. وأيقن مرسو أنّه كان قد أحضر حقيبة أكبر ممّا يجب. وترك في الصندوق حزمة المئة ورقة. وإذ أغلق حقيبته، ورمى لفافته التي لم يستهلك سوى نصفها في النار، أمسك المسدّس بيده اليمنى واقترب من العاجز.

كان زغرو ينظر الآن إلى النافذة. سُمعت سيّارة تمرّ برفق أمام الباب، يرافقها صوتُ مضغ خفيف. ومن غير أن يتحرّك، بدا زغرو

وكأنّه يتأمّل الجمال اللاإنساني كلّه لهذا الصباح النيساني. وحين أحسّ فوهة المسدّس على صدغه الأيمن، لم يحوّل عينيه. ولكن باتريس الذي كان ينظر إليه رأى عينيه تمتلئان بالدموع. وكان هو الذي أغلق عينيه. تراجع خطوة إلى الوراء وأطلق. ظلّ لحظة مستندًا إلى الجدار وعيناه ما تزالان مغلقتين. فأحسّ أنّ دمه ما فتئ يخفق عند أذنيه. ونظر. كان الرأس قد سقط على الكتف اليسرى والجسم لم يكد ينحني، حتى إنّ زغرو لم يكن يُرى بعد، وإنّما يُرى فحسب جرح هائل في تضاريس دماغه من عظم ودم. أخذ مرسو يرتعش. استدار حول المقعد وتلمّس اليد اليمنى فجعلها تمسك بالمسدّس ورفعها إلى مستوى الصدغ ثم تركها تسقط. سقط المسدّس على ذراع المقعد ومن ثم على ركبتي زغرو. وفي هذه الحركة لاحظ مرسو فم العاجز وذقنه. كان يحمل التعبير الرصين والحزين نفسه وهو ينظر إلى النافذة. وفي هذه اللحظة، انبعث صوت بوق حادّ أمام الباب. ومرّة أخرى، سُمع النداء اللاحقيقي. ولم يتحرّك مرسو الذي كان ما يزال منحنيًا على المقعد. وأنبأ انطلاق سيّارة برحيل الجزّار. أخذ مرسو حقيبته، وفتح الباب الذي كانت قبضته تلمع تحت شعاع شمسي، وخرج خافق الرأس جافّ اللسان، واجتاز باب الدخول، ومضى بخطى كبيرة. لم يكن هناك أحد، ما عدا فريق من الأولاد عند زاوية الساحة الصغيرة. وابتعد. وحين بلغ الساحة، أحسّ فجأة بالبرد فارتعش تحت سترته الخفيفة. وقد عطس مرّتين فامتلأ الوادي الصغير بأصداء واضحة، ساخرة، كان بلّور السماء يرتفع بها رويدًا رويدًا. وبالرّغم من أنّه كان يترنّح قليلاً، فقد توقّف وتنفّس بقوّة. ومن السماء الزرقاء كانت تتساقط ملايين الابتسامات الصغيرة البيضاء. فتلعب على

الأوراق التي ما تزال مخضلّة بالمطر على فُلَيْس الممرّات الرطب، وتطير نحو البيوت ذات القرميد الدموي الغضّ، وتصعد مجنّحة نحو بحيرات الهواء والشمس حيث كانت تفيض الساعة. كان هدير ناعم ينبعث من طائرة صغيرة تبحر في الأعالي. وفي تفتّح الهواء هذا وخصوبة السماء تلك، كان يبدو أنّ مهمّة الإنسان الوحيدة تكمن في أن يعيش، وأن يكون سعيدًا. كان كلّ شيء يصمت في كيان مرسو. هزّته عطسة ثالثة فأحسّ بما يشبه رجفة حمّى. إذ ذاك هرب من دون أن ينظر حوله، يلفّه صرير حقيبته ووقع خطاه. وحين وصل إلى منزله، وضع حقيبته في زاوية، فتمدّد ونام حتى منتصف الأصيل.

الفصل الثاني

كان الصيف يملأ المرفأ بالصيحات وبالشمس. وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف، والنهار يتفتّح عند منتصفه ليسحق الأرصفة بكلّ ثقل حرارته. وأمام عنابر غرفة التجارة في مدينة الجزائر، كانت «سفن» ذات هياكل سوداء ومداخن حمراء تشحن أكياس قمح. عطرها الغباري الخفيف يختلط بروائح القطران الكثيفة التي كانت شمس حارّة تفتّحها. وأمام كوخ صغير تنبعث منه رائحة الدهان وشراب الأنيسون، كان رجال يشربون وبهلوانات عرب يرتدون سراويل قصيرة حمراء يدورون ويقلّبون أجسادهم على البلاط الملتهب أمام البحر، حيث تطفر الأشعّة. ومن غير أن ينظروا إليهم، كان عمّال الأرصفة الذين يحملون الأكياس يدلفون على اللوحين المطّاطين اللذين كانا يصعدان من الرصيف إلى مرفأ السفن الشاحنة. وإذ يصلون إلى أعلى، مقطوعين فجأة في السماء وعلى الجون، بين الروافع والصواري، كانوا يتوقّفون لحظة مبهورين تجاه السماء، تلتمع عيونهم في الوجه المغطّى بطينيّة بيضاء من العرق والغبار، قبل أن يندفعوا كالعميان في قعر السفينة، ذات روائح الدم الساخن. وفي الهواء الملتهب، زأرت صفّارة زئيرًا متّصلاً.

وفجأة توقّف الرجال على اللوح متبلبلين. ذلك أنّ أحدهم سقط بين الرافدات التي كانت من التقارب بحيث تكفي لإمساكه. لكن ذراعه التوت خلفه، فانسحقت تحت عبء الكيس الهائل، فكان يصرخ من الألم. في هذه اللحظة، خرج باتريس مرسو من مكتبه. وعلى عتبة الباب، قطع عليه الصيف تنفّسه، فتنشّق بملء فمه المفتوح بخار القطران الذي كان يجرح حلقه. وتوقّف أمام العمّال. كانوا قد استخرجوا الجريح، فإذا هو منقلب على الألواح المغبرّة، وقد ابيضّت شفتاه من الألم وتدلّت ذراعه المكسورة فوق مرفقه. كانت شظيّة عظم قد اخترقت اللحم في جرح كريه يسيل منه الدم. وكانت قطرات الدم السائلة على طول الذراع تتساقط، واحدة إثر الأخرى، على الأحجار الملتهبة وهي تحدث صريرًا خفيفًا يرتفع منه بخار. كان مرسو يتأمّل، جامدًا، هذا الدم عندما أمسك أحدهم بذراعه. كان هو «إيمانويل» «صبي السباق». وكان يدلّه على شاحنة تتقدّم نحوهم وسط جلجلة السلاسل والانفجارات. «هل نلحق بها»؟

ركض باتريس. لكنّ الشاحنة تجاوزتهما. وفي الحال، اندفعا إثرها، غارقين في خضمّ الضجيج والغبار، لاهثين وأعمين، ولكن على قدر من الصحو يكفيهما ليحسّا أنّهما محمولان باندفاع الجري الجامح في إيقاع الروافع والآلات المجنون، مصحوبيْن برقص الصواري عند الأفق وترنّح هياكل السفن المبقّعة التي كانا يحاذيانها. تعلّق مرسو أوّلاً، وهو واثق من قوّته وخفّته، وقفز على الطائر. وساعد إيمانويل لكي يجلس متدلّي الساقين. ووسط الغبار الأبيض والطباشيري، والجوّ الخانق المضيء الذي يهبط من

السماء، والشمس والديكور الخيالي الرحب للمرفأ الممتلئ بالصواري والمرافع السوداء، انطلقت الشاحنة مبتعدة بكلّ سرعتها وهي تقفز بمرسو وإيمانويل على بلاط المرفأ اللامتساوي، فكانا يضحكان حتى انقطاع النفس، في دوار الدم كلّه.

حين وصلت الشاحنة إلى بلكور، نزل مرسو مع إيمانويل الذي كان يغنّي. كان يغنّي بصوت عال وناشز.

قال لمرسو:

ـ «إنّك تفهم. هو شيء ما يصعد في الصدر. عندما أكون مسرورًا، عندما أستحمّ». كان ذلك صحيحًا. فإيمانويل يغنّي وهو يسبح، وصوته الذي بُحّ من الحصر فاختنق إزاء البحر، يوقّع حركات ذراعيه القصيرتين العضِلتين. وسلكا طريق ليون. كان مرسو يمشي بخطى واسعة، فارع الطول، مؤرجحًا كتفيه العريضتين العضِلتين. وفي طريقته بوضع قدمه على الرصيف الذي سيجتازه، وانزلاق جنبيه لتفادي الحشد الذي كان، في بعض اللحظات يحيط به، كان المرء يحسّ أنّه أمام جسد فتيّ وقويّ بشكل غريب، قادر على أن يحمل صاحبه إلى أقصى درجات الفرح الجسدي. وإذا ما استراح، فقد كان يريح جسده على جنب واحد، مع تكلّف للمرونة طفيف، على غرار رجل كان قد تعلّم من الرياضة رشاقة الجسد. كانت عيناه تلمعان تحت قوسيْ حاجبيه البارزين قليلاً. وبينما كان يتحدّث مع إيمانويل، كان يشدّ على ياقته بحركة آليّة، وبرعشة متشنّجة لشفتيه الملتويتين المرتجفتين، لكي تكشف عنقه. ودلفا إلى مطعمهما وجلسا ثم أكلا بصمت. كان الجوّ رطبًا في الظلّ. في المطعم ذباب واصطفاق صحون وأحاديث. وقد تقدّم نحوهما

المعلّم «سيليست»: كان طويلاً ومشوربًا، يحكّ بطنه فوق مريوله الذي كان يسقطه فيما بعد. قال إيمانويل:

ـ كيف الحال؟

فيقول سيليست:

ـ كالشيوخ.

تحدّثنا. كان سيليست وإيمانويل يتبادلان عبارات من مثل: «أوه أيّها الزميل!» وربتات على الكتف. وكان سيليست يقول:

ـ «الشيوخ، أترى، إنّهم بلهاء. يقولون إنّ الرجل الحقيقي هو من كان في الخمسين. ولكنّهم يقولون ذلك لأنّهم في حوالى الخمسين. كان لي صاحب تنحصر سعادته بابنه. كانا يخرجان معًا. يسرفان في الإنفاق. يذهبان إلى الكازينو. وكان صاحبي يقول: لماذا تريدني أن أذهب مع جميع هؤلاء الشيوخ؟ إنّهم يروون لي كلّ يوم أنّهم تناولوا مسهّلاً، وأنّهم يعانون من كبدهم. فالأفضل أن أذهب مع ابني. وحين يعلق يومًا بفتاة ما، أتظاهر بأنّي لا أرى شيئًا وأصعد في قطار. إلى اللقاء وشكرًا. إنّني سعيد، سعيد جدًّا». كان إيمانويل يضحك. قال سيليست:

ـ بالطبع، صحيح أنّه لم يكن مرجعًا عظيمًا ولكنّني كنت أحبّه كثيرًا.. وتوجّه إلى مرسو قائلاً:

ـ ثم إنّني أفضّل هذا على صاحب أعرفه. عندما كان ينجح، يحدّثني وهو يرفع رأسه ويقوم بحركات صغيرة. أمّا الآن، فهو أقلّ زهوًا، لقد أضاع كلّ شيء.

قال مرسو:

ـ يستحقّ ذلك.

ـ أوه! يجب أن لا يكون المرء مسرفًا في الحياة. لقد سعد بأيّامه، وكان على حقّ.. لقد كان لديه تسعة آلاف فرنك. آه لو كنت مكانه!

قال إيمانويل:

ـ ما كان عساك تفعل؟

ـ كنت اشتريت بيتًا ريفيًّا، ووضعت قليلاً من الدبق على السرّة وعَلَمًا.. وهكذا سأنتظر لأرى من أين تأتي الريح.

كان مرسو يأكل بهدوء، إلى أن بدأ إيمانويل يقصّ على المعلّم معركته الشهيرة في المارن.

ـ لقد جعلونا، نحن الزواوين، قنّاصة.

قال مرسو بوداعة:

ـ إنّك تضجرنا.

ـ لقد قال القائد فيها: «هجومًا»! وكنّا بعد ذلك نهبط. كان ذلك شبيهًا بوهد ذي أشجار. قال لنا بأن نطلق، ولكن لم يكن أمامنا أحد. وعندها مشينا، إلى الأمام هكذا. ثم فجأة، بدأت الرشّاشات تطلق نيرانها. وتساقطنا بعضنا فوق بعض. كان هناك عدد كبير من الجرحى والأموات، إلى حدّ أنّ الدم المنساب في أعماق الوادي يكفي لعبوره في قارب. وكان هناك من يصرخ: «ماما! كم كان ذلك فظيعًا».

نهض مرسو، وعقد عقدة بمنشفته. وذهب المعلّم يسجّل فطوره بالطبشورة خلف باب المطبخ. كان هذا هو سجلّ حساباته.

وعندما كان يحدث أيّ احتجاج، يُخرج الباب من مفاصله ويأتي بالحسابات على ظهره. وفي إحدى الزوايا، كان «رونيه»، ابن المعلّم، يأكل بيضة برشت. قال إيمانويل:

ـ يا للمسكين! إنّه مصدور!

وكان ذلك صحيحًا. فإنّ رونيه غالبًا ما كان صامتًا ورصينًا. لم يكن شديد النحافة. ولكن نظره كان برّاقًا. في تلك اللحظة، كان أحد الزبائن يشرح له أنّ السلّ «يُشفى مع الوقت والاحتياطات». كان يوافق ويجيب برزانة بين لقمتين. وجاء مرسو يرتفق المشرب على مقربة منه ليشرب قهوة. كان الآخر يتابع: «... ألم تعرف «جان بيريز» صاحب شركة الغاز؟ لقد مات. لم يكن يشكو سوى رئة مريضة. ولكنّه أراد أن يغادر المستشفى إلى بيته. وهناك كانت زوجته. وزوجته كانت حصانًا، أمّا هو، فإنّ المرض قد أحاله هكذا. أنت تفهم. كان دائمًا يعتليها. أمّا هي فلم تكن تريد. ولكنّه كان فظيعًا. وهكذا فإنّ مرّتين أو ثلاثًا كلّ يوم كانت كافية لأن تقتل رجلاً مريضًا.

توقّف رونيه عن الطعام، كانت قطعة من الخبز ما تزال بين أسنانه. حدّق في الرجل. وقال أخيرًا:

ـ أجل إنّ الألم يأتي بسرعة. ولكن ذهابه يحتاج إلى وقت.

كتب مرسو اسمه بإصبعه على المصفاة المغطّاة بالبخار. ورفّ بعينيه. بين هذا المصدور الهادئ وبين إيمانويل المتخم بالأغاني، كانت حياته تتأرجح كلّ يوم في روائح القهوة والقطران، منفصلة عن ذاته وعن اهتمامه، غريبة عن قلبه وعن حقيقته. فالأشياء ذاتها، التي كان يمكن لها في مناسبات أخرى، أن تثير حماسه،

كان يصمت عنها ما دام يعيشها، حتى اللحظة التي يجد فيها نفسه من جديد في غرفته فيضع كلّ قوّته وحذره ليطفئ شعلة الحياة التي تتأجّج فيه.

قال المعلّم:

ـ اسمع يا مرسو. أنت المتعلّم تقول هذا.

قال باتريس:

ـ نعم. كفى. سوف تتذكّر ذلك.

ـ أوه: إنّك تبدو نشيطًا، هذا الصباح!

ابتسم مرسو، وإذ غادر المطعم، اجتاز الطريق وصعد إلى غرفته. كانت تقع فوق ملحمة للخيل. كان، وهو منحن على شرفته، يشمّ رائحة الدم ويستطيع أن يقرأ اللافتة. «إلى أشرف مكسب للإنسان». تمدّد على سريره، وأشعل لفافة ثم نام.

كان مرسو يعيش في الغرفة التي سكنتها أمّه. كانا قد سكنا طويلاً في هذه الشقّة الصغيرة المؤلّفة من ثلاث غرف. وإذ أصبح وحيدًا، أجّر مرسو غرفتين لباراميلي من أصدقائه يعيش مع أخته، واحتفظ لنفسه بأفضل غرفة. كانت أمّه قد توفّيت في الخامسة والستّين من عمرها. كانت جميلة، وبسبب ذلك اعتقدت أنّ بإمكانها أن تكون مغناجة وأن تعيش برخاء وأن تلمع. وإذ ناهزت الأربعين، أدركها مرض مريع، فتجرّدت من أثوابها ومن زينتها، واقتصرت على ارتداء قمصان المرضى، مشوّهة الوجه بانتفاخات فظيعة، مسمّرة تقريبًا بسبب ساقيها المورّمتين الخاملتين، وأخيرًا نصف عمياء تتخبّط بجنون في شقّة بلا ألوان تركتها للإهمال. كانت الضربة فجائيّة وحاسمة. كانت مصابة بالسكّري الذي أهملته

وزادته تفاقمًا بحياتها اللامبالية. أمّا مرسو فقد أُجبر على أن يوقف دروسه وأن يعمل. فحتى موت أمّه، كان ما يزال يتابع القراءة والتفكير. وطوال عشر سنوات، تحمّلت المريضة هذه الحياة. وكان هذا التعذيب قد استمرّ طويلاً إلى حدّ جعل الذين يحيطون بها يعتادون على مرضها وينسون أنّها يمكن أن تنهار بسبب إصابتها الخطرة تلك. وماتت ذات يوم. وفي الحيّ، كان مرسو موضع رثاء. كانوا يتوقّعون الكثير منه عند الدفن. يتذكّرون حبّ الابن الكبير لأمّه. ويستحلفون الأقرباء البعيدين ألّا يبكوا لكي لا يحسّ باتريس بألمه يكبر. اِبتهلوا إليهم أن يحموه وأن يتكرّسوا له. أمّا هو، فقد ارتدى أفضل ما أمكنه وأخذ يتأمّل الترتيبات، وقبّعته بيده. وقد رافق الموكب، وحضر المراسم الدينيّة ورمى قبضة التراب وتقبّل التعازي. مرّة واحدة فقط اندهش وعبّر عن استيائه من قلّة السيّارات المخصّصة للضيوف. وكان هذا كلّ شيء. وفي اليوم التالي، كان بالإمكان رؤية هذا الإعلان على إحدى نوافذ الشقّة: «للإيجار». هو الآن يعيش في غرفة أمّه. في الماضي، كان للفقر بالقرب من أمّه نكهة عذوبة. فعندما كانا يلتقيان في المساء ويأكلان بصمت حول قنديل الكاز، كانت سعادة خفيّة تكمن في هذه البساطة وهذا الحصن. كان الحيّ من حولهما صامتٌ. ومرسو ينظر إلى فم أمّه التعب ويبتسم. فتبتسم هي أيضًا، ثم يعود إلى الأكل. وكان القنديل يدخّن قليلاً فتصلحه أمّه بالحركة المنهوكة ذاتها، الذراع اليمنى وحدها ممدودة والجسم مرتدٌّ إلى الخلف. بعد فترة قصيرة تقول:

ـ ألم تعد جائعًا؟ فيجيبها: «لا».

كان يدخّن أو يقرأ. في الحالة الأولى كانت أمّه تقول:

ـ بعد!

وفي الحالة الثانية:

ـ اقترب من القنديل، ستتلف نظرك.

والآن، على النقيض، فإنّ الفقر في الوحدة كان بؤسًا فظيعًا. وحين كان مرسو يفكّر بحزن في الفقيدة، كانت شفقته في الواقع ترتدّ إليه. كان باستطاعته أن يسكن بطريقة أكثر رفاهيّة. ولكنّه كان متعلّقًا بهذه الشقّة وبرائحة الفقر فيها. هنا، على الأقلّ، يلتقي بما قد كانه. وفي حياة يسعى فيها إلى أن ينمحي، كانت هذه المجابهة القذرة الصابرة تتيح له أن يعود إلى ذاته في ساعات الحزن والأسف. ترك على الباب قصاصة من ورق مقوّى رمادي مهذّب الطرف. كانت أمّه كتبت عليه اسمها بالقلم الأزرق. احتفظ بالسرير النحاسي القديم، المغطّى بالحرير، وصورة جدّه بلحيته الصغيرة وعينيه الصافيتين الجامدتين. على المدفأة تماثيل لرعاة وراعيات يحيطون بساعة قديمة معطّلة وقنديل كاز لم يكن يشعله قطّ تقريبًا. ولم يكن الديكور المريب لكراسي القشّ المجوّفة قليلاً وللخزانة ذات المرآة المصفرّة ولطاولة الزينة الفاقدة إحدى الزوايا، لم يكن لهذا كلّه وجود بالنسبة له، لأنّ العادة قد محت كلّ شيء. كان يتجوّل في ظلّ شقّة لا تكلّفه أيّ جهد. أمّا في غرفة جديدة، فعليه أن يعتاد على الجديد، وأن يقاوم فيها أيضًا. هو يريد أن يقلّص المساحة التي يمنحها للعالم وأن ينام حتى يُستهلك كلّ شيء. وكانت هذه الغرفة تتيح له تحقيق هذا الهدف؛ فهي تطلّ من جهة على الطريق ومن جهة أخرى على سطيحة مغطّاة دائمًا

بالغسيل. وفيما وراءها تطلّ على حدائق صغيرة للبرتقال مرصوصة بين جدر عالية. في بعض الأحيان، في ليالي الصيف، كان يترك الغرفة يغمرها الظلام فيفتح النافذة على السطيحة والحدائق المظلمة. من الليل وإليه، كان أريج البرتقال يتصاعد قويًا جدًّا ويلفّه بغلالاته الشفّافة. في كلّ ليلة من ليالي الصيف، كانت غرفته، وكان هو نفسه يغرقان في هذا العطر اللطيف والمكثّف في آن واحد. وكما لو أنّه كان ميتًا لأيّام طويلة، كان يفتح نافذته لأوّل مرّة على الحياة.

استيقظ وفمه مليء بالنعاس ومغطّى بالعرق. كان الوقت متأخّرًا جدًّا. سرّح شعره وهبط مسرعًا وقفز في ترام. في الساعة الثانية وخمس دقائق كان في مكتبه. كان يعمل في غرفة كبيرة غُطّيت جدرانها الأربعة بأربعمئة وأربع عشرة مشكاة تتكدّس فيها الإضبارات. لم تكن الغرفة قذرة ولا كريهة، ولكنّها توحي في كلّ ساعة من ساعات النهار بمرقدة من شأنها أن تُبلي الساعات الميتة. كان مرسو يحقّق في وثائق شحن البضائع، ويترجم قوائم مؤونات المراكب الإنكليزيّة. ومن الساعة الثالثة حتى الرابعة يستقبل الزبائن الراغبين بشحن الطرود. كان قد طلب هذا العمل الذي لم يكن في الواقع يروق له. في أوّل الأمر وجد فيه بابًا للخروج إلى الحياة. رأى فيه وجوهًا حيّة ومرتادين وممرًّا، ونسمة يحسّ فيها أخيرًا بقلبه يخفق. وهكذا يفلت من وجوه ضاربات الآلة الكاتبة الثلاث ومن مدير المكتب السيّد لانغلوا. إحدى الضاربات كانت على قدر لا بأس به من الجمال، متزوّجة منذ فترة وجيزة. أمّا الأخرى، فكانت تعيش مع أمّها، والثالثة سيّدة مسنّة قويّة ومحترمة كان مرسو يحبّ

حديثها المزهر والتحفّظ الذي كانت تبديه حول موضوع: «مصائبه» على حدّ تعبير لانغلوا. وكان لهذا الأخير مواقف حرجة، كانت السيّدة هربيون تنتصر فيها عليه دائمًا. كانت تحتقر لانغلوا بسبب العرق الذي يلتصق بسرواله وبردفيه، وبسبب الذعر الذي يعتريه أمام المدير وأحيانًا على التلفون وهو يسمع صوت محام أو شخصيّة مرموقة. وكان المسكين يحاول عبثًا أن يهدّئ المرأة المسنّة أو أن يحظى على رضاها. وهذا المساء كان يترنّح وسط المكتب، ويقول:

ـ «أليس صحيحًا، يا سيّدة هربيون أنّك تجدينني خفيف الروح؟».

كان مرسو يترجم كلمة «نبات» ويتأمّل فوق رأسه المصباح وكُمّة المصباح المصنوع من الكرتون الأخضر المثنّى. وكانت تجاهه روزنامة ذات ألوان صارخة تحمل صورة «صفح تيرنوفاس Terre-neuvas». على طاولة صُفَّت دواة ومُبلّلة ونشّافة ومسطرة. وكانت نوافذه تطلّ على كومات كبيرة من الأخشاب مجلوبة من النرويج بواسطة سفن شحن صفراء وبيضاء. كان يرهف السمع. خلف الحائط، كانت الحياة تتنفّس تنفّسًا كبيرًا صامتًا وعميقًا على البحر وعلى المرفأ. وحرّره جرس الساعة السادسة، البعيد جدًّا منه والقريب جدًّا في آن واحد. كان ذلك يوم سبت.

حين عاد إلى منزله، استلقى ونام حتى ساعة العشاء. قلى لنفسه بيضًا وأكله رأسًا من الصحن (من غير خبز لأنّه كان قد نسي أن يشتري خبزًا) ثم استلقى ونام في الحال حتى صباح اليوم التالي. واستيقظ قبيل الغداء بقليل. رتّب هندامه، وهبط ليأكل؛

وحين صعد، حلّ كلمتين متقاطعتين، وقصّ بدقّة إعلانًا عن أملاح كروشن ألصقه في دفتر مملوء بصور الأجداد المهرّجين وهم ينزلون درجات السلالم. وإذ أتمّ ذلك، غسّل يديه ووقف على الشرفة.
كان العصر رائعًا. على أنّ البلاط كان دهنيًّا. وكان قلّة من الناس مسرعين أيضًا. أمّا هو فقد كان يتابع بعينيه كلّ إنسان بدقّة ثم يتركه بعد أن يبعد عن نظره ليعود لعابر جديد. كانوا في بادئ الأمر عائلات تتنزّه، منها عائلة من صبيين صغيرين في لباس البحّارة، البنطال تحت الركبة، مرتبكين في ثيابهما الخشنة، وفتاة صغيرة ذات شريطة كبيرة ورديّة وحذاءين أسودين مبرنقين. وخلفهم كانت أمّ مرتدية فستانًا من الحرير الكستنائي أشبه بحيوان هائل تلفّه أفعى، وأب أكثر تميّزًا، عصاه في يده. بعد قليل مرّ شباب الحيّ، شعورهم ملمّعة وربطات عنقهم حمراء، ستراتهم مخصورة جدًّا، في صدرها منديل مطرّز، وأحذية ذات رؤوس مربّعة. كانوا يذهبون إلى دور السينما، وسط المدينة، يسرعون نحو الترام وهم يطلقون ضحكات عالية. بعدهم أقفرت الطريق شيئًا فشيئًا. كانت الأفلام قد بدأت في كلّ مكان. والحيّ قد أُخلي الآن للحانوتيّين والقطط، والسماء، بالرّغم من صفائها، بدت، بلا إشراق فوق أشجار التين التي تحيط بالشارع. وتجاه مرسو، أخرج بائع التبغ كرسيًّا أمام بابه فاقتعدها وهو يتكئ بذراعيه إلى المسند. كانت الحافلات المزدحمة منذ لحظات قد فرغت تقريبًا. وفي القهوة الصغيرة «شي بيارو» كان الصبي يكنّس النشار في القاعة الفارغة. أدار مرسو كرسيّه ووضعه كبائع التبغ. ودخّن لفافتين الواحدة تلو الأخرى. ثم دخل الغرفة من جديد فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد ليأكلها عند النافذة. وبعد قليل أظلمت السماء ثم انقشعت على الأثر. ولكنّ مرور

الغيوم كان قد أحدث على الطريق ما يشبه وعدًا بالمطر جعلها أكثر إظلامًا. عند الخامسة، وصلت الحافلات وسط الضجيج حاملة من ملاعب الضاحية، عناقيد من المتفرّجين متعلّقين على المدرّجات والحواجز. أمّا الحافلات التالية، فقد أعادت اللاعبين الذين كانوا يُعرفون من حقائبهم الصغيرة. كانوا يهدرون ويغنّون ملء الرئتين أنّ ناديهم لن يفنى أبدًا. كثير منهم أرسل إشارات إلى مرسو. وصاح أحدهم «لقد هزمناهم». فاكتفى مرسو بالقول: نعم، وهو يهزّ رأسه. وتكاثرت العربات بعد ذلك. بعضها كانت قد غطّت بالأزهار جوانحها وراداّتها. ثم مال النهار بعض الشيء فوق السقوف، فأصبحت السماء محمرّة. ومع المساء الوليد، انتعشت الشوارع من جديد. كان المتنزّهون يعودون، والأولاد المتعبون يبكون أو يستسلمون للجرّ. في هذه الأثناء أفرغت قاعات سينما الحيّ في الشارع موجةً من المشاهدين. وكان مرسو يجد فيما يقوم به الشبّان من حركات مصمّمة ومتباهية التفسير اللاواعي لفيلم المغامرات الذي كانوا قد شاهدوه. أمّا الذين كانوا يعودون من دور المدينة، فقد وصلوا بعد ذلك بقليل، كانوا أشدّ رصانة، وبين الضحكات والتهريجات المقهقهة كان يبرز من جديد في عيونهم وفي هيئتهم نوع من الحنين لهذه الحياة ذات النمط المتألّق التي كانت السينما قد فتحته لهم. ظلّوا في الشارع يروحون ويغدون. وعلى الرصيف المواجه لمرسو تكوّن أخيرًا تيّاران: كانت فتيات الحيّ المسترسلات الشعر يتماسكن بالأذرع فيشكّلن أحد التيّارين، والشباب من جهة أخرى يطلقون النكات التي كانت الفتيات يضحكن لها وهنّ يُدرن رؤوسهنّ. الشبّان الرصينون يدخلون المقاهي أو يشكّلون على الرصيف فرقًا كان الموج البشري الذي

يجري بحاصرها كأنّها جزر صغيرة. وها هو الشارع مضاء، والمصابيح الكهربائيّة تشحب النجوم الأولى التي كانت تطلع في الليل. وتحت مرسو، تمتدّ الأرصفة بكلّ حمولتها من الرجال والأضواء.. المصابيح تلمّع البلاط الدهني، والحافلات ترسل لمسافات منتظمة انعكاساتها على شعر لمّاع أو شفة رطبة وضحكة أو سوار من فضّة. بعد قليل، مع الحافلات التي غدت أقلّ عددًا، ومع الليل المسودّ فوق الأشجار والمصابيح، فرغ الحيّ شيئًا فشيئًا؛ واجتاز القطّ الأوّل على مهل الشارع الخالي من جديد. فكّر مرسو بالعشاء. لقد كان يشكو ألمًا خفيفًا في عنقه لأنّه ظلّ وقتًا طويلاً مستندًا إلى ظهر كرسيّه. وقد نزل ليشتري خبزًا وفطائر ثم أعدّ طعامه وأكل. عاد إلى النافذة من جديد. كان أناس يخرجون. وكان الجوّ قد ترطّب. ارتعش، فأغلق زجاج النافذة وعاد إلى المرآة، فوق المدفأة. ما خلا بعض الأمسيات التي كان يستقبل فيها مارت أو يخرج معها ومراسلته مع صديقاته في تونس، فإنّ حياته كلّها كانت تنتظم في منظور باهت تعكسه المرآة لغرفة يتجاور فيها مصباح كاز قذر مع كسرات خبز.

قال مرسو: «يوم أحد آخر ينقضي».

الفصل الثالث

عندما كان مرسو يتنزّه في الشوارع، مساء، فخورًا بأن يرى الأضواء والظلال تتألّق كذلك على وجه «مارت»، كان كلّ شيء يبدو له سهلاً بشكل رائع، قوّته ذاتها وشجاعته ذاتها. هذا الجمال الذي كانت تسكبه له كلّ يوم كأنّها أكثر النشوات رهافة، كان يكنّ لها العرفان بأن تعلنه أمام الناس وإلى جانبه. أن تكون مارت تافهة، لكان ذلك عذّبه العذاب نفسه وهو يراها سعيدة في رغبات الرجال. كان سعيدًا بأن يدخل هذا المساء معها إلى السينما، قبيل بدء الفيلم، بينما القاعة ملأى تقريبًا. كانت تتقدّم أمامه، تحوطها نظرات الإعجاب بوجهها المزدهر الباسم وجمالها العنيف. وكان، وهو يمسك قبّعته من اللبديّة في يده، يشعر بارتياح خارق كأنّما هو وعي داخلي لأناقته الخاصّة. وقد اتّخذ هيئة متعالية ورصينة وبالغ في تهذيبه، ثم انحرف لكي يتيح للعاملة أن تمرّ، وخفض مقعد مارت قبل أن تجلس. فعل ذلك بسبب رغبة أقلّ بالتباهي ممّا كان يفعله بسبب هذا العرفان الذي يملأ قلبه ويفعمه حبًّا لجميع الكائنات؛ وإذا كان قد أعطى العاملة شيئًا مبالغًا به فلأنّه كذلك لم يكن يعرف كيف يعوّض فرحه، ولأنّه كان يعبد بهذه الحركة اليوميّة

معبودًا تلمع ابتسامته الباهرة كزيت في عينيه. وعند الاستراحة، حين كان يجول في الصالة المغطّاة بالمرايا، فقد كان وجه سعادته هو ما تعكسه له الجدران، مالئة القاعة بصور رشيقة وراعشة لقامته الفارعة القاتمة وابتسامة مارت المرتدية ألوانًا زاهية. صحيح أنّه كان يحبّ الوجه الذي يراه لنفسه على هذا النحو، والفم المرتعش حول اللفافة والحمّى المحسوسة في عينيه الغارقتين قليلاً، ولكنّ جمال إنسان ما يعكس حقائق داخليّة وعمليّة. وعلى وجهه يُقرأ ما يستطيع فعله، ولو كان ذلك ثمنًا للّاجدوى الرائعة لوجه امرأة. كان مرسو يدرك ذلك جيّدًا، ممّا كان يدغدغ غروره، ويبتسم لشياطينه الخفيّة.

حين بلغ القاعة، فكّر أنّه وحده لم يكن يخرج أبدًا في فترة الاستراحة، مفضّلاً التدخين والاستماع إلى أسطوانات الموسيقى الخفيفة التي تُدار في تلك اللحظة. ولكنّ اللعبة، كانت مستمرّة هذا المساء، وجميع الفرص لتمديدها ولتجديدها كانت ملائمة. غير أنّ مارت، عندما همّت بالجلوس ردّت سلام رجل جالس خلفهما بعدّة صفوف. وإذ سلّم مرسو بدوره، خُيّل إليه أنّه لاحظ ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه. وجلس من غير أن يتنبّه إلى اليد التي وضعتها مارت على كتفه لكي تحدّثه، والتي كان سيتقبّلها بفرح لو جاءت قبل ذلك بدقيقة كدليل جديد لهذا السلطان الذي كانت تعترف له به.

ـ من هو؟

قالها متوقّعًا أن تأتيه «مَن» طبيعيّة جدًّا.

ـ أتعرفين «هذا الرجل».

قالت مارت:

ـ آه. ثم سكتت.

ـ من هو؟

ـ هل تحرص كثيرًا على معرفته.

قال مرسو:

ـ لا.

والتفت قليلاً إلى الوراء. كان الرجل ينظر إلى رقبة مارت من غير أن يرفّ شيء في وجهه. كان جميلاً كفاية، ذا شفتين جميلتين شديدتي الحمرة، ولكنّ العينين بلا تعبير وبلا عمق. أحسّ مرسو بدفقات من الدم تصعد إلى صدغيه. وأمام نظره الذي اسودّ، كانت الألوان البرّاقة لهذا الديكور المثالي الذي كان يعيش فيه منذ ساعات قد غدت فجأة ملطّخة بالسخام. أيّة حاجة كانت به ليسمعها تتكلّم. كان متأكّدًا من أنّ هذا الرجل قد نام مع مارت. وما كان يكبر في نفس مرسو كالرعب، هو تصوّر ما بوسع هذا الرجل أن يقوله لنفسه. يعرف ذلك جيّدًا هو الذي كان قد فكّر على هذا النحو: «تستطيع دائمًا أن تفاخر». وحين راودته الفكرة أنّ هذا الرجل، في هذه الدقيقة نفسها، كان يستعيد حركات معيّنة لمارت وطريقتها في وضع ذراعها على عينيها لحظة اللذّة، وحين فكّر أنّ هذا الرجل أيضًا قد حاول أن يبعد هذه الذراع ليقرأ هياج الآلهة الكئيبة الصاخب في عيني المرأة، إذ ذّاك أحسّ مرسو أنّ كلّ شيء فيه ينهار. وبينما كان جرس السينما يعلن استئناف الفيلم، كانت عيناه المغمضتان تمتلئان بدموع الغضب. نسي مارت التي لم يسبق لها أن كانت إلّا ذريعة لفرحه، والتي أصبحت الآن الجسد النابض لغضبه. ظلّ مرسو مغلقًا عينيه فترة طويلة حتى اللحظة التي فتحهما فيها على الشاشة. تدهورت سيّارة،

وفي صمت عميق للجوقة كلّها، ظلّت إحدى العجلات وحدها تدور على مهل، جارفة في دائرتها العنيدة كلّ العار والخزي المنبعثين من قلب مرسو المستاء. ولكن حاجة لليقين في ذاته كانت تدفعه إلى نسيان كرامته. سألها:

ـ مارت، هل كان عشيقك؟

قالت:

ـ نعم. ولكن الفيلم يستهويني.

في هذا اليوم، بدأ مرسو يتعلّق بمارت، كان قد تعرّف عليها لبضعة شهور خلت. وقد ذُهل بجمالها وأناقتها. ففي وجهها العريض قليلاً، ولكن المتناسق، كانت لها عينان مذهّبتان وشفتان بلغتا من أناقة الخضاب بحيث كانت تبدو أشبه بآلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة. وكانت بلاهة طبيعيّة تلمع في عينيها فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيرًا. وحتى الآن، في كلّ مرّة كان مرسو يعقد فيها مع امرأة ما أولى الحركات الملزمة ويعي الشقاء الذي يفرض على الحبّ والشهرة أن يتّحدا بالطريقة ذاتها، كان يفكّر بالقطيعة قبل أن يكون قد ضمّ هذا الكائن بين ذراعيه. إلّا أنّ مارت كانت قد أدركته في لحظة كان فيها مرسو يتحرّر من كلّ شيء ومن ذاته. ذاك أنّ وهم الحرّيّة والاستقلال لا يدركه إلّا من كان لا يزال يعيش بالأمل. أمّا بالنسبة لمرسو، فلم يكن لشيء آنذاك أيّ حساب. فعندما استرخت مارت بين ذراعيه للمرّة الأولى ورأى في الملامح التي جعلها التقارب مشوّشة قليلاً، رأى الشفتين الجامدتين حتى الآن كزهرتين مرسومتين تخفقان بالحياة وتمتدّان نحوه، إذ ذاك، لم ير المستقبل من خلال هذه المرأة، وإنّما أحسّ بقوّة رغبته كلّها

تتركّز فيها وتمتلئ بهذا التجلّي. وكانت الشفتان اللتان تقدّمهما له تبدوان له رسالة من عالم بلا أهواء، مليء باللذة، يصيب فيه قلبه الرضى. ولقد أحسّ ذلك كأنّه المعجزة. وكان قلبه يخفق بعاطفة أوشك أن يظنّها حبًّا. وعندما أحسّ باللحم الريّان المرن تحت أسنانه، فإنّما عضّ فيه نوعًا من الحرّيّة الوحشيّة عضًّا هائجًا بعد أن كان قد داعبه طويلاً بشفتيه بالذات. وغدت عشيقته في ذلك اليوم نفسه. وبعد فترة، كان ائتلافهما في الحبّ تامًّا. ولكنّه، وقد عمقت معرفته لها، فقد فقد شيئًا فشيئًا حدس هذه الغرابة التي كان قد قرأها فيها والتي ما يزال يحاول، وهو مائل على فمها، أن يبتعثها أحيانًا. وهكذا لم تكن مارت، التي ألفت تحفُّظ مرسو وبرودته، لتدرك قطّ لماذا طلب منها ذات يوم أن تعطيه شفتيها وهما في حافلة غاصّة بالناس. قدّمتهما له وهي مذعورة. قبّلهما على هواه بادئًا بمداعبتهما بشفتيه ثم عاضًّا إيّاهما على مهل. قالت له على الأثر: «ماذا دهاك؟» وافترّ وجهه بالبسمة التي كانت تحبّها: البسمة المقتضبة التي تجيب. فقال: «أحبّ أن أحسّني قلقًا» ليدخل مجدّدًا في صمته. كذلك لم تكن تفهم قاموس باتريس. فبعد فعل الحبّ، في تلك اللحظة التي يهجع فيها القلب في الجسد المحرّر المسترخي، ممتلئًا فقط بالشغف الحنون الذي نكنّه لكلب لطيف، كان مرسو يقول لها باسمًا: «مرحبًا يا تجلٌّ».

كانت مارت ضاربة على الآلة الكاتبة. ولم تكن تحبّ مرسو. بيد أنّها كانت معلّقة به بقدر ما كان يثير فضولها ويدغدغ غرورها. فمنذ اليوم الذي تحدّث فيه إيمانويل، وكان مرسو قد قدّمه لها فقال عنه:

ـ «إنّ مرسو، لو تعلمين، شخصيّة. إنّه يخبّئ شيئًا في ذاته. ولكنّه يغلّفه، من أجل ذلك يُخدع به الإنسان».

منذ ذلك اليوم أخذت تنظر إليه بفضول. فلمّا كان يجعلها سعيدة في الحبّ، لم تكن لتطلب منه مزيدًا، مستريحة على أفضل وجه لهذا العشيق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قطّ بشيء. وكان يأخذها حين كانت تريد طوعًا أن تأتي. إلّا أنّها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء أمام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيبه.

غير أنّها فهمت ذلك المساء، بعد خروجهما من السينما، أنّ شيئًا ما يستطيع أن يؤثّر فيه. وصمتت طوال الأمسية ثم نامت عنده. فلم يلمسها الليل كلّه. غير أنّها، ابتداء من هذه اللحظة، أفادت من تفوّقها. لقد سبق أن قالت له: إنّها قد كان لها عشّاق. وعرفت كيف تجد الأدلّة الضروريّة.

وفي اليوم التالي، وعلى غير عادتها، جاءت إلى منزله إثر انتهاء عملها. فوجدته نائمًا. فجلست عند أسفل السرير النحاسي من غير أن توقظه. كان يرتدي قميصًا أكمامه المرفوعة تكشف بياض الساعد العاضل الأسمر. كان يتنفّس بانتظام بصدره وبطنه معًا. وكانت ثنيتان بين حاجبيه تضفيان عليه تعبير قوّة وإصرار كانت تعرفه جيّدًا فيه. وكانت خصلات شعره تتهدّل على جبينه البالغ السمرة الذي كان وريد ينبض فيه. وكان يبدو، وهو مستلق على كتفيه العريضتين، وذراعاه ممتدّتان على طول الجسد وإحدى ساقيه نصف منثنية، أشبه بإله متوحّد عنيد ملقى، وهو نائم، في عالم غريب. وأمام شفتيه الريّانتين المكتنزتين بالنوم، اشتهته. فقد فتح

في تلك اللحظة عينيه نصف فتحة وأغلقهما وقال من غير غضب:

ـ لا أحبّ أن ينظر إليّ أحد وأنا نائم.

وقفزت على عنقه وقبّلته. فظلّ جامدًا.

قالت:

ـ أوه. يا حبيبي نزوة أخرى من نزواتك.

ـ لا تناديني حبيبي، أرجوك. لقد سبق أن قلت لك ذلك.

وتمدّدت ملتصقة به ونظرت إليه جانبيًا.

ـ إنّني أتساءل من تشبه في وضعك هذا.

رفع سرواله وأدار لها ظهره. كثيرًا ما كانت مارت، في السينما، ومع بعض الغرباء وفي المسرح، معتادة على حركات مرسو وتشنّجاته. والحقّ أنّه كان يجد في ذلك التأثيرَ الذي كان يمارسه عليها، غير أنّ هذه العادة التي كانت تدغدغ غروره غالبًا تضايقه اليوم. والتصقت بظهره، وتلقّت على بطنها وعلى صدرها حرارة نومه كلّها. كان المساء يهبط بسرعة كبيرة والغرفة تغرق في الظلمة. وفي داخل البيت يتصاعد بكاء أطفال قد ضُربوا ونواء واصطفاق باب. كانت مصابيح الشارع تضيء الشرفة. وحافلات نادرة تمرّ. وبعد ذلك كانت رائحة الحيّ المكوّنة من الأنيسون واللحم المشوي تتصاعد إلى الغرفة هبّات ثقيلة.

أحسّت مارت بالنعاس يستولي عليها.

قالت:

ـ يبدو عليك الغضب منذ البارحة. من أجل ذلك أتيت. ألا تقول شيئًا؟

وهزّته. فظلّ مرسو جامدًا. كان يراقب في الظلام، الذي غدا كثيفًا، الحنية اللامعة لحذاء موضوع تحت طاولة الزينة.

قالت مارت:

ـ اسمع. إنّ رجل البارحة قد بالغتُ في أمره. لم يكن عشيقي.

قال مرسو: لا؟

ـ لم يكن في الحقيقة، لم يكن تمامًا!

ولم يقل مرسو شيئًا. كان يرى بوضوح الحركات والابتسامات. وقد كزّ على أسنانه. ثم نهض وفتح النافذة ثم عاد وجلس على السرير، تكوّرت بلصقه ومرّرت يدها بين زرّين من أزرار قميصه، وداعبت صدره.

وأخيرًا سألها:

ـ كم عشيقًا عرفت؟

ـ إنّك تضجرني.

ثم سكت مرسو.

قالت:

ـ حوالى العشرة.

كان النعاس عند مرسو يستدعي التدخين.

سألها وهو يخرج علبته:

ـ هل أعرفهم؟

لم يكن يرى إلّا بياضًا مكان وجه مارت. وكان يفكّر:

«كما في الحبّ».

ـ أجل، تعرف بعضهم في الحيّ.

كانت تحكّ رأسها بكتفه، وتتّخذ صوت فتاة صغيرة كان دائمًا يوهي عزيمته، قال لها:

ـ اسمعي يا صغيرتي. (أشعل لفافته) افهميني. ستعدينني بأن تقولي لي أسماءهم. أمّا بالنسبة للآخرين، أولئك الذين لا أعرفهم، فستعدينني أيضًا، إن نحن لقيناهم، بأن تدلّيني عليهم.

فارتدّت مارت إلى الوراء:

ـ آه! لا.

زمّرت سيّارة بعنف تحت نوافذ الغرفة. ثم زمّرت طويلاً مرّة أخرى ثم مرّتين. رنّ جرس الترام في أعماق الليل. وعلى رخام طاولة الزينة، كان المنبّه يرسل تكتكات باردة. قال مرسو بجهد:

ـ إنّني أطلب منك ذلك لأنّني أعرف نفسي، فإذا لم أعرف، فسيتكرّر الأمر. كلّما لاقيت شخصًا سأسائل نفسي وسأتخيّل. هذا هو الأمر. سيشطّ بي الخيال. لست أدري إن كنت تفهمينني!

كانت تفهم تمامًا. فذكرت الأسماء. واحد فقط كان مجهولاً بالنسبة لمرسو. أمّا الأخير، فقد كان شابًّا يعرفه. وبه كان يفكّر، لأنّه يعرفه جميلاً ومحتفى به من النساء. وما كان يثيره في فعل الحبّ، للمرّة الأولى على الأقلّ، كانت هذه الصميميّة الفظيعة التي كانت المرأة تتقبّلها، وأن تتلقّى في بطنها بطن مجهول. وكان يتعرّف، في هذا النوع من العفويّة والبساطة والدوار، على سلطان الحبّ المثير والقذر. وهذه هي الصميميّة التي كان يتصوّرها في

بادئ الأمر بين مارت وعشيقها. في هذه اللحظة، جلست على حافّة السرير مسندة قدمها اليسرى على فخذها اليمنى. خلعت أحد حذاءيها ثم الآخر وتركتهما يسقطان أحدهما ممدّدًا على جنبه والآخر واقفًا على كعبه العالي. أحسّ مرسو بحلقه ينقبض. شيء ما في معدته يتأكّله.

قال وهو يبتسم:

ـ أهكذا كنت تفعلين مع رونيه؟

رفعت مارت عينيها وقالت:

ـ ما الذي تتصوّره! إنّه لم يكن عشيقي إلّا مرّة واحدة.

قال مرسو:

ـ آه!

ـ ثم إنّني لم أخلع حذائي.

نهض مرسو. كان يراها مقلوبة، مرتدية ثيابها، على سرير شبيه بهذا السرير، مستسلمة بكاملها وبلا تحفّظات. وصرخ: «أغلقي فمك!» ومشى نحو النافذة.

قالت مارت:

ـ آه يا عزيزي!

وكانت ما تزال جالسة على السرير وقدماها عاريتان بجواربهما وعلى الأرض.

كان مرسو يهدأ، وهو ينظر إلى لعب المصابيح على السكك الحديديّة. لم يسبق له قطّ أن كان في مثل هذا القرب من مارت. وإذ فهم أنّه في الوقت نفسه كان ينفتح عليها أكثر قليلاً، كان الزهو

يحرق عينيه. وعاد إليها. وبين السبابة المطويّة والإبهام أمسك جلد العنق الدافئ تحت الأذن، وابتسم.

ـ وهذا الـ «الزغرو»، من هو؟ إنّه الوحيد الذي لا أعرفه.

قالت مارت وهي تضحك:

ـ إنّني ما أزال أراه، هو.

وشدّ مرسو أصابعه على الجلد.

ـ إنّه عشيقي الأوّل. أنت تقدّر. كنت صبيّة صغيرة، وكان يكبرني قليلاً. أمّا الآن، فساقاه مقطوعتان. وهو يعيش وحيدًا. من أجل ذلك، أذهب أحيانًا لأراه. إنّه ذو شخصيّة. ومثقّف. فهو يقرأ دائمًا. وفي تلك الأيّام كان تلميذًا. إنّه مرح جدًّا، إنّه شخصيّة بالاختصار. زِدْ على ذلك أنّه يقول لي مثلك. يقول لي: تعالي إلى هنا، يا تجلٌ.

فكّر مرسو. وترك مارت التي انقلبت على السرير وهي تغمض عينيها. بعد فترة، جلس إلى جانبها وبحث، وهو ينحني على شفتيها المنفرجتين، عن دلائل ألوهيّته الحيوانيّة ونسيان ألم كان يعتقد أنّه معيب. ولكنّه ترك فمها من غير أن يذهب أبعد من ذلك.

وحين رافق مارت، حدّثته عن زغرو. قالت:

ـ لقد حدّثته عنك. قلت له إنّ حبيبي كان جميلاً جدًّا وقويًّا جدًّا. وإذ ذاك قال لي إنّه يودّ لو يتعرّف عليك. وقال لي: «أن أرى جسمًا جميلاً، فهذا يساعدني على أن أتنفّس جيّدًا».

قال مرسو:

ـ إنّه شخص معقّد آخر.

كانت مارت تريد أن تسرّه، واعتقدت أنّ الوقت قد حان لتذكر حادثة الغيرة الصغيرة التي كانت تفكّر بها، والتي كانت تعتقد أنّه كان هو سببها على نحو ما.

ـ أوه! إنّه أقلّ تعقيدًا من صديقاتك!

قال مرسو وهو صادق التعجّب:

ـ أيّة صديقات؟

ـ إنّك تعرفهنّ. الصغيرتان الحمقاوان، كما تعرف.

الصغيرتان الحمقاوان، كانتا روز وكلير؛ وهما طالبتان من تونس كان مرسو قد تعرّف عليهما. ومعهما فقط كان يتبادل المراسلة الوحيدة في حياته. وقد ابتسم وأخذ برقبة مارت ومشيا طويلاً. كانت مارت تسكن أمام ساحة العمّال اليدويّين. وكان الطريق طويلاً، يلمع بكلّ نوافذه في القسم الأعلى بينما كان الأسفل، وكلّه حوانيت مقفلة، أسود حزينًا.

ـ قل يا حبيبي. ألا تحبّهما؟ هاتين الحمقاوين الصغيرتين؟

قال مرسو:

ـ أوه. لا.

كانا يسيران، ويد مرسو على رقبة مارت المغطّاة بحرارة الشعر.

قالت مارت بلا تمهيد:

ـ إنّك تحبّني.

وانتعش مرسو فجأة وضحك ضحكًا شديدًا.

ـ هوذا سؤال خطير جدًا.

ـ أجب.

ـ ولكن في سنّنا، لا يحبّ المرء. إنّ أحدنا يروق للآخر، وهذا كلّ شيء. فيما بعد، عندما نكون شيوخًا وعاجزين، نستطيع أن نحبّ. أمّا في سنّنا، فنعتقد أنّنا نحبّ. هذا كلّ شيء.

وبدت حزينة، ولكنّها قبّلته.

قالت:

ـ إلى اللقاء يا حبيبي.

وعاد مرسو أدراجه في الطرقات السوداء. كان يسير بسرعة، وفيما كان يستشعر لعبة عضلات فخذه على طول قماش السروال المالس، أخذ يفكّر بزغرو وبساقيه المقطوعتين: كانت به رغبة للتعرّف عليه. وقرّر أن يطلب من مارت أن تقدّمه إليه.

أحسّ مرسو، في المرّة الأولى التي رأى فيها زغرو، بالغيظ. بيد أنّ زغرو كان قد حاول أن يخفّف من وطأة الإزعاج الكامن في تصوّر لقاء عشيقَيْ امرأة واحدة، وبحضورها. لأجل ذلك، كان قد حاول أن يجعل مرسو شريكًا وهو يعامل مارت «كفتاة طيّبة» ويضحك بشدّة. وظلّ مرسو مصدومًا. لقد باح بذلك بعنف لمارت ما إن وُجدا بمفردهما.

ـ إنّني لا أحبّ نصف الحصص. إنّ هذا يضايقني ويمنعني من التفكير. وإنّني أقلّ حبًّا أيضًا لنصف الحصص التي تُفاخِر.

أجابت مارت، ولم تكن قد فهمت:

ـ أوه! أنت! لو كنّا نستمع إليك.

على أنّ ضحكة زغرو الفتية التي كانت قد أغاظته في بادئ

الأمر، استرعت فيما بعد انتباهه واهتمامه. كما أنّ الغيرة التي أُسيء تقنيعها والتي قادت مرسو في حكمه كانت قد اختفت عندما رأى زغرو. ونصح مارت التي تذكّر، في براءة كلّيّة، بالوقت الذي تعرّفت فيه على زغرو، قائلاً:

ـ لا تضيّعي وقتك. لا يمكن أن أكون غيورًا من شخص لا يملك ساقيه بعد. يكفي أن أفكّر بكما أنتما الاثنين حتى أراه كدودة ضخمة عليك. أنتِ تفهمين إذن. إنّ ذلك يلويني من الضحك. لا تتعبي نفسك، يا ملاكي.

وفيما بعد، عاد وحده إلى منزل زغرو. وكان هذا الأخير يتكلّم كثيرًا وبسرعة، ويضحك ثم يسكت، وكان مرسو يحسُّ براحة تامّة في الغرفة الكبيرة التي يقيم فيها زغرو بين كتبه ونحاسيّاته المراكشيّة، والنار وانعكاساتها على وجه بوذا الرصين الخميري على مكتب عمله. كان يستمع إلى زغرو، وما استرعى انتباهه لدى العاجز، هو أنّه كان يفكّر قبل أن يتكلّم. وأمّا ما تبقّى من الشهوة المكبوتة والحياة المضطرمة التي تحيي هذا الجذع المضحك، فقد كان كافيًا لكي يمسك بمرسو ويولّد فيه، لو أنّه استسلم لمزيد من العفويّة، شيئًا كان يمكن أن يعتبره صداقة.

الفصل الرابع

بعد ظهر هذا الأحد، كان رولان زغرو، بعد أن تكلّم ومزح كثيرًا، صامتًا قرب النار في مقعده الكبير الدائر، منبثقًا من أغطيته البيضاء. وكان مرسو، وهو يستند إلى المكتبة، ينظر إلى السماء وإلى القرية من خلال ستائر النوافذ الحريريّة البيضاء. كان قد أتى تحت مطر خفيف ناعم، وخوفًا من أن يصل أبكر ممّا ينبغي، فقد ظلّ يتيه طوال ساعة في الريف. كان الجوّ كئيبًا، ومن غير أن يستمع إلى الريح، كان مرسو يرى مع ذلك الأشجار والأوراق وهي تتلوّى بصمت في الوادي الصغير. ومرّت، من ناحية الطريق، عربة حلّاب وسط ضجيج كبير من الحديد والخشب. وفي الحال تقريبًا أخذ المطر يتساقط بغزارة ويغرق النوافذ. ومع ترافق هذا الماء الشبيه بالزيت السميك على الزجاج، ووقع أجوف وبعيد لحوافر الحصان الذي يبدو الآن أكثر وضوحًا من ضجيج العربة، ووابل المطر المخنوق المتواصل، وهذا الرجل ـ القطرميز أمام النار وصمت الغرفة، كلّ ذلك يتّخذ وجه الماضي الذي كانت كآبته الصامتة تنفذ إلى قلب مرسو، كما نفذ الماء منذ قليل إلى حذائيه الرطبين، والبرد إلى ركبتيه المحميّتين على نحو رديء بقماش

رقيق. منذ لحظات مضت، كانت المياه المتبخّرة التي تهطل، لا ضبابًا ولا مطرًا، قد غسلت وجهه كيدٍ رقيقة، وكشفت عينيه الغائرتين عميقًا. كان ينظر الآن إلى السماء، وفي أعماقها غيوم سوداء تتزاحم بلا انقطاع سرعان ما تنمحي وسرعان ما تحلّ محلّها سحائب أخرى. وكانت ثنية بنطاله قد اختفت ومعها اختفت الحرارة والثقة التي يصاحبها رجل طبيعي في تنزّهه في عالم مصنوع من أجله. ومن أجل ذلك اقترب من النار ومن زغرو، جالسًا بمواجهته في ظلّ المدفأة العالية وبمواجهة السماء دائمًا. نظر إليه زغرو وحول عينيه ورمى في النار كرة من الورق كان يحملها في يده اليسرى. وفي هذه الحركة المضحكة كما هي دائمًا، تلقّى مرسو الضيق الذي كان يسبّبه له مرأى هذا الجسد نصف الحيّ. وابتسم زغرو ولكنّه لم يقل شيئًا. وفجأة أحنى وجهه نحوه. كان اللهب يلمع على خدّه الأيسر وحده. ولكنَّ شيئًا ما في صوته وفي نظره كان مشحونًا بالحرارة.

قال:

ـ يبدو عليك أنّك متعب.

وبدافع من حياء، أجاب مرسو بهذه الكلمات فقط:

ـ أجل، إنّني «ضجر».

وبعد فترة، نهض وسار نحو النافذة، وأضاف وهو ينظر إلى الخارج:

ـ أرغب في أن أتزوّج أو أن أنتحر أو أشترك بمجلّة «أولوستراسيون»، وبالاختصار حركة يائسة.

وابتسم الآخر:

ـ إنّك فقير يا مرسو. وهذا يفسّر نصف قرفك. أمّا النصف الآخر، فإنّك مدين به إلى إقرارك اللامعقول الذي تحمله للفقر.

كان مرسو ما يزال يوليه ظهره وينظر إلى الأشجار في مهبّ الريح. وملّس زغرو بيده الغطاء الذي يغطّي ساقيه.

ـ أنت تعلم أنّ الإنسان يحكم على ذاته دائمًا بالنسبة للتوازن الذي يقيسه بين حاجات جسده ومتطلّبات فكره. أمّا أنت، فإنّك تحاكم نفسك بقذارة، يا مرسو. إنّك تعيش عيشة سيّئة، عيشة المتوحّش.

وأدار رأسه نحو باتريس.

ـ هل تحبّ أن تسوق سيّارة؟

ـ نعم.

ـ هل تحبّ النساء؟

ـ عندما يكنّ جميلات.

ـ هذا ما كنت أعنيه.

واستدار زغرو ناحية النار.

بعد لحظة بدأ يقول: «كلّ هذا...».

التفت مرسو وأخذ ينتظر نهاية الجملة، وهو مستند على الزجاج الذي يلتوي قليلاً خلفه. ظلّ زغرو صامتًا. كانت ذبابة باكوريّة تطنّ على الزجاج. والتفت مرسو وحبسها تحت يده ثم أطلقها. كان زغرو ينظر إليه، وقال له متردّدًا:

ـ لا أحبّ أن أتكلّم بجدّ. لأنّه لن يكون هناك إلّا شيء واحد يمكننا التحدّث به: التبرير الذي يضفيه المرء على حياته. أمّا أنا،

فإنّني لا أرى كيف أستطيع أن أبرّر لنفسي ساقيّ المبتورتين.

ـ «وأنا كذلك»؟ قال مرسو من غير أن يتلفّت.

وانفجرت فجأة ضحكة زغرو النضرة:

ـ شكرًا. إنّك لا تترك لي أيّ وهم.

وغيّر لهجته:

ـ ولكنّك محقّ في أن تكون قاسيًا. على أنّ هناك أمرًا أودّ أن أقوله لك.

وصمت برصانة. وأقبل مرسو يجلس تجاهه.

وكرّر زغرو:

ـ اسمع وانظر إليّ. إنّهم يساعدونني على قضاء حاجاتي. وبعد ذلك يغسّلونني وينشّفونني. وأسوأ ما في الأمر أنّني أستأجر شخصًا ليقوم بهذا العمل. ومع ذلك، فإنّني لن أقوم أبدًا بحركة لأختصر حياة أؤمن بها كثيرًا. إنّني قد أتقبّل ما هو أسوأ أيضًا، أن أكون أعمى وأخرس وكلّ ما تريده، شريطة أن أحسّ فقط في أحشائي هذه الشعلة الداكنة والمحتدمة التي هي أنا وأنا الحيّ. ولن أفكّر إلّا بأن أحمد الحياة أنّها أتاحت لي أن أحترق بعد.

وارتمى زغرو إلى الخلف لاهثًا بعض الشيء. كان يُرى الآن أقلّ من ذي قبل، فقط انعكاسًا كابيًا كانت أغطيته تخلفه على ذقنه. إذ ذاك قال:

ـ وأنت يا مرسو، إنّ واجبك الوحيد هو أن تعيش بجسدك. وأن تسعد.

قال مرسو:

ـ لا تجعلني أضحك. تصوّرني بساعاتي الثماني في المكتب. آه! لو كنت حرًّا!

وكان يحسّ بالانتعاش وهو يتكلّم، ويعاوده الأمل كما كان في السابق أحيانًا، وقد ازداد اليوم قوّة بدافع من الإحساس بالعون. وكانت ثقة ما تأتيه من أنّ بوسعه أخيرًا أن يكون موضع ثقة. وقد هدأ قليلاً وبدأ يسحق لفافة، واستأنف بمزيد من الرزانة:

ـ لسنوات خلت، كان كلّ شيء أمامي. وكانوا يحدّثونني عن حياتي وعن مستقبلي. كنت أقول نعم. بل كنت أفعل ما كان ينبغي عليّ أن أفعله من أجل ذلك. ولكن ذلك كلّه بدأ آنذاك غريبًا عليّ. أن أتشبّث باللاشخصيّة، هذا ما كان يشغلني. وأن لا أكون سعيدًا «ضدّيًا». إنّني أسيء الشرح. ولكنّك تفهم يا زغرو.

قال الآخر:

ـ أجل.

ـ وما أزال الآن، لو أتيح لي الوقت.. لن يكون أمامي إلّا أن أستسلم. وكلّ ما قد يحصل لي، علاوة على ذلك، فإنّما هو كالمطر فوق حصاة، إنّه يُنعشها وهذا بذاته جميل جدًّا. وذات يوم سوف تلتهب بالشمس. لقد بدا لي دائمًا أنّ السعادة إنّما هي هذا بالضبط.

كان زغرو قد شبك يديْه. وفي الصمت الذي تلا، بدأ المطر يتضاعف. وانتفخت الغيوم في ضباب لا متميّز. وأظلمت الغرفة بعض الشيء كما لو كانت السماء تصبّ عليها حمولتها من العتمة والصمت. وقال العاجز باهتمام:

ـ إنّ للجسد دائمًا المثال الذي يستحقّه. ومثال الحصاة هذه، إن

كان بإمكاني أن أقول ذلك، يحتاج، لكي يدعمه، جسد نصفِ ـ إله.

قال مرسو مندهشًا قليلاً:

ـ هذا صحيح! ولكن لا تبالغ بشيء. لقد قمت بكثير من الرياضة، وهذا كلّ ما في الأمر. وأنا قادر على أن أمضي بعيدًا في الشهوة.

وفكّر زغرو.

قال:

ـ نعم. وهذا أفضل لك. أن تدرك حدود جسدك، هذه هي البسيكولوجيّة الصحيحة. ثم إنّه ليس لذلك أهمّيّة. ليس لدينا الوقت لنكون «نحن أنفسنا». ليس لدينا الوقت إلّا لنكون سعداء. ولكن هل يضجرك أن تحدِّد لي فكرتك في اللاشخصيّة؟

قال مرسو:

ـ لا.

ثم صمت.

شرب زغرو جرعة من شايه، وترك فنجانه المليء. كان يشرب قليلاً جدًّا، لأنّه لا يريد أن يتبوّل إلّا مرّة واحدة في اليوم. وبقوّة الإرادة، كان يتوصّل دائمًا تقريبًا إلى أن يخفّف ثقل الإذلال الذي يحمله إليه كلّ يوم. «ليس هناك توفيرات صغيرة. إنّما هي مأثرة كغيرها». وهذا ما كان قد قاله لمرسو ذات يوم. وتساقطت لأوّل مرّة بضع قطرات من الماء في المدفأة، وأنّت النار، وكان المطر يتضاعف على الزجاج، وفي جهة ما اصطفق باب. وفي الطريق المقابل كانت السيّارات تتتابع كجرذان لمّاعة. وزمّرت إحداها طويلاً. وعبر الوادي الصغير، كان الرنين الأجوف الحزين يجعل

حيّز العالم الرطب أكثر رحابة، حتى إنّ ذكراه بالذات غدت بالنسبة لمرسو مركّبة من صمت هذه السماء وضيقها.

ـ إنّني أستميحك عذرًا يا زغرو. فقد مضى عليّ وقت طويل من غير أن أتحدّث عن بعض الأمور. ولذلك فأنا لم أعد أعرف أو لا أعرف كما ينبغي. عندما أنظر إلى حياتي وإلى لونها الخفيّ، أحسّ فيّ ما يشبه زلزالاً من الدموع، شأني في ذلك شأن هذه السماء. إنّها مطر وشمس معًا. منتصف نهار ومنتصف ليل. آه، يا زغرو! أفكّر في هذه الشفاه التي قبّلتها، والولد الفقير الذي كنته، وفي جنون الحياة والطموح الذي يعصف بي في بعض اللحظات. إنّني كلّ ذلك في آن واحد. أنا متأكّد من أنّ هناك لحظات لن تعرفني فيها. لا أدري، فأنا متطرّفٌ في الشقاء مغالٍ في السعادة.

ـ أتلعب على عدّة مستويات في آن واحد؟

قال مرسو بحدّة:

ـ نعم. ولكن لا كهاوٍ. كلّما فكّرت في مسيرة الألم والفرح هذه في ذاتي، أدرك جيّدًا وبحماس شديد أنّ اللعبة التي ألعبها، هي، من بين جميع الألعاب، أكثرها رصانة وأشدّها إثارة.

كان زغرو يبتسم.

ـ هل لديك إذن شيء تقوم به؟

قال مرسو بعنف:

ـ لديّ حياتي لأكسبها. غير أنّ عملي وهذه الساعات الثماني تحول بيني وبين ذلك.

وصمت وأشعل اللفافة التي كان ما يزال يمسكها بين أصابعه.

ثم قال قبل أن يطفئ عود الثقاب:

ـ ومع ذلك، فلو كنت أملك ما فيه الكفاية من القوّة والصبر...

ونفخ على عوده وسحق طرفه المفحَّم على ظهر يده اليسرى.

ـ إنّني أدرك جيّدًا إلى أيّ درك من الحياة سأصل. لن أجعل من حياتي تجربة. سأكون تجربة حياتي. أجل، إنّني أدرك جيّدًا أيّ هوس سيملأني بكلّ قوّته. فيما مضى كنت أصغر ممّا ينبغي. وكنت أقف في الوسط. أمّا اليوم، فقد أدركت أنّ المرء حين يعمل ويحبّ ويتألّم فإنّما يعيش بالفعل، ولكنّه يعيش بقدر ما يشفّ ويتقبّل قدره كانعكاس فريد لقوس قزح من الفرح والأهواء هو نفسه بالنسبة للجميع.

قال زغرو:

ـ أجل، ولكنّك لا تستطيع أن تعيش على هذا النحو وأنت تعمل...

ـ لا، لأنّني في حالة تمرّد، وهذا أمر سيّئ.

وصمت زغرو. كان المطر قد توقّف. ولكنّ الليل قد حلّ في السماء مكان الغيوم. خيّم الآن ظلام تامّ تقريبًا على الغرفة. وحدها النار كانت تضيء وجهي العاجز ومرسو اللامعين. وبعد صمت طويل، اكتفى زغرو وهو ينظر إلى باتريس بالقول: «كثير من الآلام ستنتظر الذين يحبّونك». ثم توقّف مشدوهًا أمام قفزة مرسو الفجائيّة وقد توارى رأسه في الظلمة وهو يقول بعنف:

الحبّ الذي يكنّونه لي لا يجبرني على شيء.

ـ هذا صحيح. ولكنّني كنت أستنتج. ستبقى وحيدًا يومًا ما. وهذا كلّ شيء. ولكن اجلس واستمع إليّ. إنّ ما سبق لك أن ذكرته لي قد أثار انتباهي. هناك شيء بالذات يهمّني، لأنّه يؤكّد كلّ ما علّمتني إيّاه تجربتي كإنسان، إنّني أحبّك كثيرًا يا مرسو بسبب جسدك على كلّ حال. إنّه هو الذي علّمك كلّ هذا. واليوم يبدو لي أنّني أستطيع أن أكلّمك بقلب مفتوح.

عاد مرسو فجلس بهدوء ودخل وجهه في النور المحمرّ لنار توشك على النهاية. وفجأة، وفي مربّع النافذة، أحسّ خلف الستائر الحريريّة بما يشبه الانفتاح في الليل. شيء ما كان يسترخي خلف الزجاج. ونفذ ضوء حليبي إلى الغرفة، وتعرّف مرسو على شفتي الإنسان البوذي الكامل الساخرتين والمتحفّظتين، وعلى النحاسيّات المنحوتة. تعرّف على الوجه المألوف الخاطف لليالي المكوكبة والقمريّة التي يحبّها كثيرًا. كان ذلك كما لو أنّ الليل قد فقد بطانته من الغيوم فأخذ يلمع في ألقه الهادئ. وعلى الطريق، كانت السيّارات تجري بسرعة أقلّ. وفي أعماق الوادي الصغير، كان اضطراب مفاجئ يهيّئ العصافير للنوم. وكانت تُسمع خطى أمام البيت. وفي هذا الليل كانت الأصوات ترنّ أكثر اتّساعًا وأكثر صفاء كحليب على العالم. وبين النار المحمرّة واختلاج يقظة الغرفة وبين الحياة الخفيّة للأشياء المألوفة التي تحيط به، كانت قصيدة خاطفة تُنسج وتهيّئ مرسو ليتقبّل من قلب آخر بثقة وحبّ ما سيقوله زغرو. انقلب قليلاً على مقعده، وأمام السماء أخذ يستمع إلى قصّة زغرو الغريبة.

بدأ يقول:

ـ إنّني متأكّد من أنّنا لا نستطيع أن نكون سعداء بلا مال. هذا كلّ ما في الأمر. إنّني لا أحبّ السهولة ولا الرومنطيقيّة. أحبّ أن أفهم. لاحظت عند بعض النخبة أنّهم يعتقدون في نوع من التفاخر الروحي بأنّ المال غير ضروري للسعادة. هذه بلادة. وهذا خطأ، وهو إلى حدّ ما جبن.

أترى يا مرسو، بالنسبة لرجل كريم النسب، فإنّ السعادة ليست أمرًا معقّدًا. يكفيه أن يستعيد قدر الجميع، ليس بإرادة الزهد كما يفعل عدد كبير من الرجال الكبار المزيّفين، ولكن بإرادة السعادة. على أنّك بحاجة فقط إلى وقت لتكون سعيدًا، كثير من الوقت. السعادة هي أيضًا صبر طويل. وفي جميع الحالات تقريبًا نُتلف حياتنا لنكسب مالاً، بينما يجب، بالمال، أن نكسب وقتنا. هذه هي المشكلة التي أثارت اهتمامي في وقت ما. إنّها دقيقة. إنّها واضحة.

توقّف زغرو وأغمض عينيه. كان مرسو يتطلّع إلى السماء بإصرار. بعد لحظة، غدت أصوات الطريق والقرية مميّزة، واستأنف زغرو حديثه من غير ما استعجال:

ـ . . أوه، أنا أدرك جيّدًا أنّ غالبيّة الرجال الأغنياء لا يملكون أيّ حسّ بالسعادة. ولكنّ السؤال ليس هنا. أن يكون لديك مال، معنى ذلك هو أن يكون لديك وقت. إنّني لا أحيد عن هذا. إنّ الوقت يُشترى. كلّ شيء يُشرى. أن تكون أو أن تصبح غنيًّا، معناه أن تملك الوقت لتصبح سعيدًا عندما يكون الإنسان جديرًا بأن يكونه.

ونظر إلى باتريس، وقال:

ـ مرسو، عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري، أدركت أنّ كلّ كائن يملك حسّ السعادة وإرادتها ومطلبها يحقّ له أن يكون غنيًّا. وكان مطلب السعادة يبدو لي أشرف ما في قلب الإنسان. كلّ شيء يُبرَّر بها في نظري. إنّ قلبًا نقيًّا كان كافيًا لذلك.

وأخذ زغرو، الذي كان ما يزال ينظر إلى مرسو، يتكلّم فجأة بهدوء أكثر، بصوت بارد وقاس، كما لو أنّه يودّ أن يُخرج مرسو من شروده الظاهري:

ـ في الخامسة والعشرين بدأت أجمع ثروتي. لم أتراجع أمام الاحتيال. لم يكن لي أن أتراجع أمام أيّ شيء. وبعد سنوات، كنت قد حقّقت ثروتي النقديّة كلّها. تصوّر يا مرسو، ما يقرب من المليونين. كان العالم يتفتّح لي، ومع العالم، الحياة التي أحلم بها في العزلة والاضطرام.

وعاود زغرو، بعد فترة، بصوت مخنوق:

ـ تلك هي الحياة التي كنت سأحياها، لولا الحادث الذي أودى بساقيّ في الحال تقريبًا. لم أعرف كيف أنتهي. وها أنا الآن. إنّك تدرك جيّدًا، أليس كذلك، إنّني لم أكن أريد أن أعيش حياة مستضعفة. ومنذ عشرين عامًا ومالي هنا، بالقرب منّي. لقد عشت بتواضع. لم أكد أنقص ثروتي.

وأمرّ يديه القاسيتين على جفنيه، وقال بصوت أكثر انخفاضًا:

ـ يجب ألّا تلوّث الحياة أبدًا بقبلات عاجز..

في هذه اللحظة، كان زغرو قد فتح الصندوق الصغير الذي كان يلامس المدفأة، وأشار إلى خزنة نحاسيّة ضخمة مسمّرة مع

مفتاحها. وكانت على الخزنة رسالة بيضاء ومسدّس كبير أسود. وعلى نظرات مرسو الفضوليّة بلا تعمّد، كان زغرو قد ردّ بابتسامة. كان ذلك بسيطًا جدًّا. ففي الأيّام التي أحسّ فيها أكثر ممّا ينبغي المأساة التي كانت قد حرمته من حياته، كان يضع أمامه هذه الرسالة التي لم يكن قد أرّخها، والتي تشكّل قسمًا من رغبته في أن يموت، ثم كان يضع السلاح على الطاولة ويقرّب المسدّس ويلصق عليه جبينه ويدير عليه صدغيه، ويخفّف على برودة الحديد حمّى وجنتيه. مكث على هذه الحالة وقتًا طويلاً وهو يترك أصابعه تتيه على طول الزناد، ويحسّ فرضة التوقّف، إلى أن يصمت العالم من حوله ويلفّه النعاس. فينغمر كيانه كلّه في الإحساس بحديد بارد ومتّسخ يمكن للموت أن يخرج منه. وحين يحسّ أنّه يكفيه أن يؤرّخ رسالته وأن يُطلق، ويتحقّق من عبثيّة سهولة الموت، كانت مخيّلته تنشط بما فيه الكفاية لتمثّل له، بكلّ فظاعته، ما يعنيه، في مفهومه، نفي الحياة. فكان يحمل في نصف إغفاءته رغبته كلّها في أن يحترق بعدُ وسط الكرامة والصمت. وحين كان يستيقظ تمامًا، وفمه ما يزال مليئًا بريق مرّ، كان يلعق أنبوب السلاح ويدخل فيه لسانه ويدمدم أخيرًا بسعادة مستحيلة.

ـ لقد أضعت بالطبع حياتي. ولكنّني كنت على حقّ آنذاك. كلّ شيء من أجل السعادة ضدّ العالم الذي يحوطنا بحماقته وعنفه.

وضحك زغرو أخيرًا وأضاف:

ـ أترى، يا مرسو، إنّ سقوط حضارتنا وقساوتها تُقاس بهذه المسلّمة السخيفة التي تقول بأن ليس للشعوب السعيدة تاريخ.

كان الوقت متأخّرًا جدًّا. وكان مرسو مخطئًا في تقديره ذلك.

رأسه يعجّ بهيجانٍ محموم؛ في فمه حرارةُ اللفافات التي كان قد دخّنها ولذعُها. وكان الضوء من حوله متواطئًا أبدًا. ولأوّل مرّة، منذ أن استمع إلى قصّته، التفت ناحية زغرو وقال:

ـ أعتقد أنّني أفهم.

وكان العاجز تعبًا من مجهوده الطويل يتنفّس بخفوت. على أنّه قال بجهد بعد فترة صمت:

ـ أودّ أن أتأكّد من أنّك قد فهمت. لا تجعلني أقول إنّ المال يصنع السعادة. إنّما أقصد فقط أنّه بالنسبة لطبقة ما من البشر تصبح السعادة ممكنة (شرط أن يؤمّن الوقت)، وأن تملك المال هو أن تتحرّر من المال.

كان مكوّمًا على كرسيّه وتحت أغطيته. وكان الليل مطبقًا على نفسه، فلم يعد مرسو يرى الآن رولان زغرو تقريبًا. وتبع ذلك صمت طويل. كان مرسو يرغب في أن يُعيد الاتّصالات ويتأكّد من حضور هذا الإنسان في الظلمة، فنهض وكأنّه يتحسّس، وقال:

ـ إنّها لمجازفة جميلة يتعرّض لها المرء.

قال الآخر خفية:

ـ أجل. ومن الأفضل أن نراهن على هذه الحياة بدلاً من أن نراهن على الأخرى. أمّا بالنسبة لي، فإنّها بالطبع مسألة أخرى.

فكّر مرسو: «خرقة! صفر في العالم».

ـ منذ عشرين عامًا لم أستطع أن أقوم بتجربة سعادة ما. هذه الحياة التي تنهشني، لم أكن لأتعرّف عليها تمامًا. وإنّ ما يخيفني في الموت هو هذا اليقين الذي يحمله لي من أنّ حياتي قد

استُهلكت دوني. على الهامش. هل تفهم؟

وبلا تمهيد، انبعثت في الظلمة ضحكة فتيّة جدًّا:

ـ هذا يعني، يا مرسو، في حقيقة الأمر، أنّه ما يزال لي، في حالتي، بعض الأمل.

وتقدّم مرسو بضع خطوات نحو الطاولة.

قال زغرو:

ـ فكّر في هذا كلّه، فكّر فيه كلّه.

واكتفى الآخر بأن قال:

ـ هل أستطيع أن أضيء النور؟

ـ إن أردت.

وبدا أنف رولان وعيناه المستديرتان أكثر شحوبًا في النور المشعّ. كان يتنفّس بجهد. وقابل حركة مرسو، وهو يمدّ إليه يده، بأن هزّ رأسه وضحك ضحكًا أقوى ممّا ينبغي:

ـ لا تبالغ في حملي على محمل الجدّ. أنت تدرك أنّ الهيئة المأساويّة التي يتّخذها الناس أمام ساقَيَّ المبتورتين تغيظني دائمًا.

وفكّر الآخر: «إنّه لا يكترث بي».

ـ لا تنظر بطريقة مأساويّة إلّا إلى السعادة. فكّر بهذا جيّدًا، يا مرسو. إنّ لك قلبًا نقيًّا. فكّر بهذا.

ثم نظر في عينيه وقال له بعد فترة:

ـ وأنت تملك أيضًا ساقين، فذلك أمر لا يفسد شيئًا.

وابتسم إذ ذاك وحرّك جرسًا صغيرًا:

ـ انصرف يا صغيري، إنّني أريد أن أتبوّل.

الفصل الخامس

حين عاد مرسو إلى منزله مساء هذا الأحد، وكانت أفكاره كلّها متّجهة نحو زغرو، قبل أن يدخل غرفته، سمع نواحًا يأتي من شقّة كردونا، البراميلي. طرق الباب فلم يجبه أحد. كان الأنين مستمرًا. فدخل من غير ما تردُّد. كان البراميلي متكوّرًا على سريره، يبكي وهو يغصّ غصّات طفل كبيرة. عند قدميه صورة امرأة عجوز. «لقد ماتت». قال ذلك لمرسو بجهد كبير. وكان ذلك صحيحًا، ولكن كان قد مضى عليه وقت طويل.

كان أصمّ، نصف أخرس، شرّيرًا وفظًّا. وكان حتى ذلك الحين قد عاش مع أخته. ولكنّها، إذ تعبت من شراسته ومن استبداده، فقد التجأت بالقرب من أولادها. وبقي هو وحده، حائرًا حيرة رجل عليه أن ينظّف منزله ويحضّر طعامه لأوّل مرّة. وقد روت أخته نزاعاتهما لمرسو الذي التقت به يومًا في الشارع. كان هو في الثلاثين من عمره، قصيرًا، لا بأس بجماله. وقد عاش منذ طفولته مع أمّه. كانت المخلوق الوحيد الذي أوحى إليه بخوف موسوس أكثر ممّا هو مبرّر. كان قد أحبّها بروحه الفظّة، أي

بشراسة واندفاع ممزوجين. وخير دليل على محبّته كانت طريقته في مضايقة المرأة العجوز بتلفّظه بأبذأ الكلام عن الكهنة وعن الكنيسة. ولئن كان قد عاش كلّ هذا الوقت الطويل مع أمّه، فلأنّه أيضًا لم يكن قد أوحى لأيّة امرأة بعلاقة رصينة. إلّا أنّ المغامرات النادرة أو البيت العمومي كانت تسمح له أن يدّعي الرجولة.

وماتت الأمّ. ومنذ ذلك الحين، عاش مع أخته. كان مرسو قد أجّرهما الغرفة التي كانا يحتلّانها. وكان الاثنان وحدهما يشقيان ويرتقيان حياة طويلة قذرة وسوداء. وبصعوبة كانا يتمكّنان من أن يتحادثا. ولهذا كانت تمرّ أيّام كاملة من غير أن يتبادلا كلمة واحدة. ولكنّها رحلت. وكان أكثر كبرياء من أن يتشكّى ويطلب منها أن تعود. كان يعيش وحده. في الصباح يأكل في المطعم وفي المساء يأكل في منزله شرائح من لحم الخنزير. كان يغسل ثيابه الداخليّة وملابس العمل الزرقاء الغليظة. ولكنّه كان يترك غرفته في أسوأ حال من القذارة. على أنّه، في بعض الأحيان، في أوّل الأمر، يوم الأحد، كان يأخذ رقعة ويحاول أن ينظّم الغرفة بعض التنظيم. ولكن بعض سذاجات رجاليّة، وقِدْرًا على المدفأة، كانت فيما مضى مزهّرة ومزيّنة، توحي بالإهمال الذي كان كلّ شيء يسبح فيه. وإنّ ما كان يسمّيه ترتيبًا كان يرتكز على إخفاء الفوضى وستر ما كان مبعثرًا وراء الوسائد أو أكثر الأشياء غرابة على الصِوان. ومع ذلك، فقد انتهى به الأمر إلى السأم، فلم يكن حتى ليصلح سريره وكان ينام مع كلبه على الأغطية الوسخة النتنة. وكانت أخته قد قالت لمرسو: «إنّه يتخابث في المقاهي. ولكن المؤجّرة قالت لي إنّها كانت قد شاهدته يبكي وهو يغسل ثيابه».

وفي الواقع، وبالرّغم من القساوة التي كان عليها، فإنّ رعبًا ما يستولي على هذا الرجل في بعض الساعات ويجعله يقدّر مدى التخلّي عنه. وكانت تقول لمرسو إنّها بالطبع عاشت معه بداعي الشفقة. ولكنّه كان يمنعها من أن ترى الرجل الذي أحبّته. على أنّ ذلك لم يكن له كبير أهمّيّة في سنّهما. ولقد كان رجلاً متزوّجًا. وكان يحضر لصديقته زهورًا يقطفها من أسيجة الضواحي وبرتقالاً ومشروبات يكسبها من المعرض. صحيح أنّه لم يكن جميلاً؛ ولكنّ الجمال لا يؤكل سلطة. ثم إنّه كان طيّبًا جدًّا. كانت متعلّقة به هو الذي كان متعلّقًا بها. أيكون الحبّ شيئًا آخر؟

كانت تغسل له ثيابه وتجهد لكي تبقيه نظيفًا. وكان من عادته أن يحمل مناديل مطويّة على شكل مثلّث ومعقودة حول العنق؛ وكانت تصنع له مناديل بيضاء جدًّا. وكان ذلك إحدى مسرّاتها.

ولكنّ الآخر، الأخ، لم يكن يريد أن تستقبل صديقها. فكان عليها أن تراه خفيةً. وكانت قد استقبلته مرّة. وإذ فاجأهما، فقد حصلت مشاجرة عنيفة. كان المنديل المثلّث قد بقي بعد ذهابهما في ركن وسخ من الغرفة، وكانت أن التجأت عند ابنها. كان مرسو يفكّر بهذا المنديل أمام الغرفة القذرة التي تنفتح لعينيه.

وفي تلك الفترة، كان الناس قد رثوا مع ذلك للبراميلي أن يكون متوحّدًا إلى هذا الحدّ. كان قد حدّث مرسو عن زواج ممكن. وكان المقصود امرأة أكبر منه سنًّا.

ولا شكّ أنّه كان يغريها أملُ مداعباتٍ شابّة وقويّة. وكانت أن حصلت عليها قبل الزواج. وبعد فترة، تراجع عشيقها عن المشروع، معلنًا أنّه يجدها أسنّ ممّا ينبغي. وبقي وحيدًا في هذا

البيت الصغير من الحيّ. وشيئًا فشيئًا طوّقته القذارة وحاصرته وضربت سريره، ثم غمرته على نحو راسخ. كان البيت قبيحًا أكثر ممّا ينبغي. وبالنسبة لرجل فقير لا يجد المسرّة في بيته، ثمّة بيت أقرب منالاً وأكثر غنى، ومضيئًا، ومرحّبًا دائمًا: هو المقهى. كان روّاد هذا الحيّ حيويّين بنوع خاصّ. وفيه كانت تهيمن حرارة القطيع، تلك الحرارة التي هي الملاذ الأخير ضدّ أهوال الوحدة ومتطلّباتها القادمة. وقد اتّخذ الرجل الأبكم فيه منزلاً، كان مرسو يجده هناك في جميع الأمسيات. وكان بفضلهم يؤخّر إلى أبعد حدّ ممكن لحظة الرجوع. وفيهم كان يستعيد مكانه بين البشر. وهذا المساء بالذات لم تكن المقاهي، بلا شكّ لتكفي. وإذ عاد إلى منزله، فلا بدّ أنّه كان قد أخرج هذه الصورة وأيقظ معها أصداء الماضي الميت. فوجد من جديد تلك التي كان قد أحبّها وعذّبها. وفي الغرفة الكريهة، وحيدًا أمام لا جدوى حياته، وقف مستجمعًا قواه الأخيرة، ليستردّ الماضي الذي كان يشكّل سعادته. كان ينبغي افتراض ذلك على الأقلّ، وافتراض أنّ التقاء هذا الماضي بحاضره البائس قد فجّر شرارة إلهيّة، ما دام قد أخذ يبكي.

وككلّ مرّة كان فيها مرسو يجد نفسه أمام مظهر قاسٍ من مظاهر الحياة، فقد كان بلا قوّة، ممتلئًا احترامًا أمام هذا الألم الوحشي. وقد جلس على الأغطية القذرة المدعوكة ووضع يده على كتف كردونا. كان أمامه، على شرشف الطاولة المشمّع، قنديل كاز، وزجاجة خمر، وفتات خبز، وقطعة جبن وصندوق أدوات. وفي السقف تدلّت بيوت أنسجة العناكب. وكان مرسو، الذي لم يسبق له أن دخل هذه الغرفة منذ موت أمّه، يحدّد بالقذارة والبؤس

المزقّت الذي كان يملأها، الطريق الذي قطعه هذا الإنسان.

كانت النافذة التي تطلّ على الملعب مغلقة، أمّا الأخرى فلم تكد تكون مفتوحة. وكان قنديل الكاز يرسل نوره المستدير الهادئ على الطاولة، وعلى قدمي مرسو وكردونا، وعلى كرسي يواجههما على مقربة من الحائط. في هذه الأثناء كان كردونا قد أمسك الصورة بين يديه ينظر إليها ويقول، وهو ما يزال يقبّلها، بصوت العاجز الذي كانه: «مسكينة أمّي». ولكنّه إنّما كان يرثي نفسه كذلك. كانت قد دُفنت في المقبرة القبيحة التي يعرفها مرسو جيّدًا من الطرف الآخر في المدينة.

وأراد أن يذهب، فقال وهو يتهجّى الكلام لكي يُفهَم:

ـ يجب ـ أن ـ لا ـ تبقى هكذا.

قال الآخر بمشقّة: «ليس لديّ عمل بعد»، وقال بصوت متقطّع وهو يمدّ الصورة: «كنت أحبّها»، وترجم مرسو: «كانت تحبّني».

ـ «لقد ماتت» وفهم مرسو: «إنّني وحيد».

ـ كنت قد صنعت لها هذا البرميل الصغير لعيدها.

على المدفأة، كان هناك برميل صغير من الخشب المدهون مزيّن بالدوائر النحاسيّة وحنفيّة لمّاعة. وترك مرسو كتف كردونا الذي استرخى على الوسائد القذرة. ومن تحت السرير انبعث تأوّه عميق ورائحة منفّرة. وخرج الكلب على مهل، وهو يجوّف كليتيه. ووضع على ركبتي مرسو رأسه ذا الأذنين الطويلتين والعينين المذهّبتين. كان مرسو ينظر إلى البرميل الصغير. وفي الغرفة القذرة حيث كان هذا الرجل يتنفّس بجهد، وحرارة الكلب تحت أصابعه، كان يغمض عينيه على اليأس الذي كان، لأوّل مرّة منذ زمن بعيد،

يتصاعد فيه كبحر. أمام الشقاء والوحدة، كان قلبه اليوم يقول: «لا» وفي الحزن الكبير الذي كان يملأه، كان مرسو يحسّ جيّدًا أنّ تمرّده هو الشيء الوحيد الحقيقي في نفسه، وأنّ كلّ ما تبقّى كان بؤسًا ومجاملة.. وكان الشارع الذي كان البارحة يعيش تحت نوافذه ما يزال يمتلئ بأصواته. وتصاعدت، في الحدائق تحت السطيحة، رائحة أعشاب. قدّم مرسو لكردونا لفافة، فدخّن كلاهما من دون أن يتكلّما. ومرّت آخر الحافلات، ومرّت معها الذكريات التي ما تزال حيّة للرجال والأضواء. ونام كردونا ثم ما لبث أن شخر أنفه المليء بالدموع. وكان الكلب المكوّر عند قدمي مرسو يتحرّك أحيانًا ويئنّ تحت أحلامه. وعند كلّ حركة، كانت رائحته تصعد نحو مرسو. كان مرسو مستندًا إلى الحائط يحاول أن يضغط في قلبه تمرّد الحياة. أخذ القنديل يدخّن، ويسودّ، وأخيرًا انطفأ باعثًا رائحة كاز كريهة.

كان مرسو يهوّم، واستيقظ وعيناه محدّقتان على زجاجة الخمر. نهض في جهد كبير. وذهب نحو نافذة داخليّة وتجمّد أمامها. ومن أعماق الليل، كانت تصعد نحوه نداءات وألوان من الصمت. وعند حدود العالم الذي كان يغفو هنا، تصاعد طويلاً نداء مركبٍ يدعو الناس إلى الرحيل وإلى بداءات جديدة.

وفي اليوم التالي، كان مرسو يقتل زغرو، ويعود إلى منزله وينام عصر يوم بأكمله، ويستيقظ محمومًا. وعند المساء استدعى طبيب الحيّ، وهو ما يزال مستلقيًا، فأبلغه بأنّه مصاب بنزلة وافدة. أتى موظّف من مكتبه حين علم بأخباره حاملاً معه طلبه للإجازة. وبعد أيّام، كان كلّ شيء قد دُبّر. محضر الموت والتحقيق. كلّ

شيء يبرّر فعل زغرو. وجاءت مارت لترى مرسو، وقالت وهي تتنهّد: «هناك أيّام يريد فيها الإنسان أن يكون محلّه. ولكن هناك مرّات، يحتاج فيها الإنسان إلى مزيد من الشجاعة ليعيش أكثر ممّا يحتاج لينتحر». وبعد أسبوع كان مرسو يبحر إلى مرسيليا. كان ذاهبًا، بالنسبة للجميع، ليرتاح في فرنسا. ومن ليون، تلقّت مارت رسالة قطيعة عانت منها كبرياؤها. وفي الوقت نفسه، كان يعلن لها أنّ وظيفة استثنائيّة كانت قد عُرضت عليه في أوروبا الوسطى. وكتبت له مارت رسالة عن ألمها وضعتها في شبّاك البريد. ولم تصل هذه الرسالة قطّ لمرسو، الذي أصيب، في اليوم التالي لوصوله إلى ليون، بنوبة حمّى عنيفة وقفز إلى قطار متوجّه إلى براغ. ومع ذلك، فقد كانت مارت تخبره أنّهم، بعد عدّة أيّام من عرض الجثّة، كانوا قد دفنوا زغرو، وأنّهم كانوا بحاجة إلى كثير من الوسائد لكي يسندوا جذعه في النعش.

القِسم الثاني

الموت الواعي

الفصل الأوّل

قال الرجل بالألمانيّة:

ـ أريد غرفة.

كان البوّاب الجالس أمام لوحة محمّلة بالمفاتيح مفصولاً عن البهو بطاولة عريضة. وقد تفحّص الشخص الذي دخل الساعة، ومعطفه المشمّع الرمادي ملقى على كتفيه ويتحدّث وهو يدير رأسه.

ـ بالطبع، أيّها السيّد، لليلة؟

ـ لا. لا أدري.

ـ عندنا غرف بثمانية عشر كورونًا وبخمسة وعشرين وبثلاثين.

كان مرسو ينظر إلى شارع براغ الصغير الذي يُرى من خلال باب الفندق الزجاجي، كانت يداه في جيبه، مكشوف الرأس؛ تحت شعره المشعّث، وعلى بعد خطوات، كان يُسمع صرير الحافلات التي تهبط جادّة وينسلاس.

ـ أيّة غرفة ترغب يا سيّدي؟

قال مرسو، ونظراته ما تزال مسمّرة على الباب الزجاجي:

ـ لا فرق.

أخذ البوّاب مفتاحًا من على اللوحة وقدّمها لمرسو.

قال:

ـ الغرفة رقم ١٢.

وبدا على مرسو أنّه استيقظ.

ـ كم أجرتها، هذه الغرفة؟

ـ ثلاثون كورونًا.

ـ إنّها أغلى ممّا أستطيع. أريد غرفة بثمانية عشر كورونًا.

وأخذ الرجل مفتاحًا جديدًا، من دون أن ينبس بكلمة، وأشار إلى النجمة النحاسيّة التي كان المفتاح يتدلّى منها: الغرفة رقم ٣٤.

حين جلس مرسو في غرفته، خلع سترته، وشدّ قليلاً ربطة عنقه، من دون أن يفكّها، وشمّر أكمام قميصه بطريقة آليّة. اقترب من المرآة فوق المغسلة، لملاقاة وجه ذي ملامح مشدودة، مسمرّ في الأماكن التي لم تكن تسوّدها ذقن نمت منذ بضعة أيّام. وكان شعره المشعّث من سباق الترام، يتهدّل متناثرًا على جبينه حتى ثنيتين عميقتين بين الحاجبين كانتا تضفيان على نظره نوعًا من التعبير الجادّ الحنون استلفت نظره بالذات. وعندها فقط فكّر في أن ينظر حوله إلى الغرفة الحقيرة التي كانت تشكّل ثروته الوحيدة والتي لم يكن يرى فيما وراءها أيّ شيء على الإطلاق. وعلى سجّادة قذرة ذات رسوم أزهار ضخمة صفراء على أرضيّة رماديّة، كانت جغرافية كاملة من القذارة ترسم عوالم لزجة من البؤس. وخلف المشعاع الضخم، كانت زوايا دهنيّة وموحلة. وكان المعكاس مكسورًا تُرى منه أدوات التماسّ النحاسيّة. وفوق سرير ذي صفائح نحاسيّة، كان خيط قد

ورنشه الدهن وجفّت عليه بقايا ذباب قديمة، تتدلّى منه لمبة من دون كمّة كانت تلزق بالأصابع. لاحظ مرسو الشراشف النظيفة. وأخرج أدوات زينته من الحقيبة ونظّمها واحدة فواحدة على المغسلة ثم تأهّب ليغسل يديه، ولكنّه أقفل الحنفيّة التي لم يكد يفتحها، ثم ذهب ليفتح نافذة بلا ستائر. كانت تطلّ على فناء خلفي فيه حوض غسيل، وعلى جدر مثقوبة بنوافذ صغيرة. على إحداها كان غسيل يجفّ. تمدّد مرسو وسرعان ما غفا. واستيقظ مبتلًّا بالعرق، مختلّ الهندام، ودار لحظة في غرفته، ثم أشعل سيكارة وجلس، فارغ الرأس، ونظر إلى ثنيات سرواله المدعوك. وفي فمه كانت تمتزج مرارة النوم والسيكارة. ونظر إلى غرفته مرّة أخرى وهو يحكّ جنبيه تحت قميصه، فأحسّ بعذوبة مريعة تتصاعد إلى فمه أمام هذا القدر الهائل من الاستسلام والوحدة. كان يكفيه أن يحسّ نفسه في هذه الغرفة بعيدًا إلى هذا القدر عن كلّ شيء وحتى عن حُمّاه، ويتحقّق بهذا الوضوح ما في أعماق أكثر الحيوات تنظيمًا من عبث وبؤس، حين ينتصب أمامه الوجه المخجل والخفي لنوع من الحرّيّة يُولد من الملتبس والمشبوه. وحوله كانت ساعات واهنة وليّنة، وكان الزمن كلّه يبقبق كأنّه الوحل.

دُقّ الباب بعنف، فاضطرب مرسو، وتذكّر أنّه سبق له أن أُوقظ بضربات شبيهة بهذه. وفتح، فوجد نفسه أمام عجوز مشقرّ الوبر، مسحوق تحت حقيبتي مرسو اللتين بدتا عليه ضخمتين. كان يختنق من الغضب، وأسنانه المفرّقة، تُخرج من خلالها سيلاً من الكلام المليء بالشتائم والاحتجاجات. وإذ ذاك تذكّر مرسو القبضة المكسورة التي كانت تجعل كبرى الحقيبتين متعبة إلى هذا الحدّ

بحملها. وأراد أن يعتذر، ولكنّه لم يدر كيف يقول إنّه لم يكن يعلم أنّ الحمّال كان عجوزًا إلى هذه الدرجة. ولكنّ العجوز القصير قاطعه:

ـ أربعة عشر كورونًا.

وتعجّب مرسو: من أجل يوم في المستودع؟

وفهم عندئذ من الشروح الطويلة التي قُدّمت له أنّ العجوز كان قد استقلّ سيّارة أجرة. ولكنّه لم يجرؤ على القول إنّه كان بإمكانه أن يستأجر سيّارة بنفسه في هذه الحالة، ثم دفع بدافع من الملل. وحين أغلق الباب أحسّ مرسو بدموع لا يمكن تفسيرها تملأ صدره. ودقّت ساعة قريبة جدًّا الرابعة. كان قد نام ساعتين. كان يدرك ذلك، ولم يكن مفصولاً عن الشارع إلّا بالبيت الذي يواجهه. وكان يحسّ بزخم الحياة الصامتة السرّيّة التي تسيل منه. من الأفضل أن يخرج. وغسل مرسو يديه طويلاً جدًّا، ولكي يبرد أظافره، عاد فجلس على حافّة السرير وحرّك بانتظام المبرد. صفّرت اثنتان أو ثلاث صفّارات في الساحة بعنف شديد جعل مرسو يعود إلى النافذة. وإذ ذاك رأى تحت البيت ممرًّا مقبّبًا يؤدّي إلى الشارع. كان ذلك يتمّ كما لو أنّ جميع أصوات الشارع، الحياة المجهولة كلّها للناحية الأخرى من البيوت، ضجيج الرجال الذين يملكون عنوانًا وعائلة واختلافات مع عمّ، وأطعمة مفضّلة على المائدة ومرضًا مزمنًا، بالإضافة إلى ازدحام الناس كالنمل والذين كانت لكلّ واحد منهم شخصيّته ـ كان ذلك كلّه كضربات كبيرة مفصولة إلى الأبد عن قلب الحشد الهائل الذي يتسلّل من الممرّ ويتصاعد على طول الملعب كلّه لينفجر

كفقاقيع في غرفة مرسو. وكان يكفيه أن يحسّ نفسه نفيذًا إلى هذا الحدّ، منتبهًا إلى هذا الحدّ لكلّ إشارة من العالم حتى يدرك الشقّ العميق الذي كان يفتحه على الحياة. أشعل سيكارة أخرى ولبس ثيابه بعصبيّة. أحسّ وهو يزرّر أزرار سترته بالدخان يخزّ جفونه. رجع إلى المغسلة يمسح عينيه وأراد أن يسرّح شعره. ولكن مشطه كان قد اختفى. كان النوم قد شعّث شعره، وعبثًا حاول أن يعيد تصفيفه. وهبط كما هو، شعره متهدّل على وجهه، ومنكوش من الخلف. كان يحسّ بمزيد من الإذلال؛ وإذ أصبح في الشارع، قام بدورة حول الفندق لينفذ أمام الممرّ الصغير الذي كان قد لاحظه. كان الممرّ ينفتح على جادّة البلديّة القديمة. وفي المساء الثقيل بعض الشيء الذي يهبط على براغ، كانت قمم قبب البلديّة الغوطيّة وقمم كنيسة تينسكي القديمة تتقاطع سوداء. كان جمع غفير يجري تحت الشوارع الصغيرة المقنطرة. وكان مرسو، أمام كلّ امرأة، يترصّد النظر الذي يسمح له بأن يعتقد نفسه قادرًا بعدُ على أن يلعب لعبة الحياة الرهيفة الحنون. ولكنّ الأشخاص الأصحّاء يملكون طريقة فنّيّة طبيعيّة تتجنّب النظرات المحمومة. كان غير حليق الذقن، مشعّثًا، في عينيه تعبير حيوان قلق، سرواله مدعوك كقبّة قميصه. كان قد فقد هذه الثقة العجيبة التي تضفيه بذلة مفصّلة تفصيلاً جيّدًا أو مقود سيّارة. كان الضوء يصبح قاسيًا والنهار يتباطأ على ذهب القبب الباروكيّة التي كانت تُرى في قلب الساحة. توجّه نحو إحداها، ودخل الكنيسة، وإذ أسرته الرائحة القديمة، فقد جلس على مقعد. كانت القبّة معتمة تعتيمًا تامًّا، ولكنّ ذهب تيجان العواميد كان يصبّ ماء مذهّبًا سرّيًّا يسيل في أضلاع العواميد حتى وجه الملائكة المنتفخ والقدّيسين المقهقهين.

وكانت ثمّة عذوبة، أجل، لقد كانت هناك عذوبة ولكنّها مُرّة إلى حدّ جعلت مرسو يرتدّ إلى العتبة؛ وحين انتصب واقفًا على الدرجات، تنفّس هواء الليل الذي غدا الآن أكثر رطوبة والذي كان سينغمر فيه. وبعد لحظة أخرى، رأى أوّل نجمة تتّقد، نقيّة ومعرّاة بين قمم قبب كنيسة تينسكي.

ثم راح يبحث عن مطعم رخيص. غرق في شوارع أشدّ ظلامًا وأقلّ مارّة. وبالرّغم من أنّ المطر لم يسقط في النهار، فإنّ الأرض كانت مبتلّة، وكان عليه أن يتجنّب البرك السوداء بين البلاطات النادرة. ثم أخذ مطر خفيف ناعم يتساقط. ولم تكن الشوارع المأهولة بعيدة من غير شكّ، لأنّ أصوات منادي الصحف كانت تُسمع إلى هنا وهم ينادون «الناردونا بوليتيكا». وكان هو، أثناء ذلك، يطوف بالمكان. ثم توقّف فجأة. كانت رائحة غريبة تتصاعد من أعماق الليل. رائحة واخزة، حامزة، توقظ فيه جميع إمكانيّات القلق. كان يحسّها على لسانه، في أعماق أنفه وعلى عينيه. كانت بعيدة، ثم مالت إلى زاوية الشارع بين السماء المسودّة والبلاطات الدهنيّة والدبقة، كسحر رديء لليالي براغ. تقدّم نحوها، كانت تغدو، كلّما تقدّم، أكثر حقيقة. فتجتاحه بأكمله، تخزّ عينيه بالدموع وتتركه لا حول له ولا قوّة. وعلى زاوية شارع، أدرك السبب، كانت امرأة عجوز تبيع خيارًا مكبوسًا بالخلّ وكانت رائحته هي التي أمسكت بمرسو. توقّف أحد المارّة، واشترى خيارة لفّتها له العجوز بورقة. خطا بضع خطوات، ثم فتح لفّته أمام مرسو، وقضم بملء أسنانه الخيارة التي كان لحمها الممزّق السائل تفوح منه رائحة أشدّ نفاذًا.

كان مرسو منزعجًا، فاستند إلى ركيزة وتنفّس لحظة طويلة كلّ ما كان يقدّمه له العالم من غريب ومتوحّد في هذه الدقيقة. ثم رحل ودخل، من غير أن يفكّر، إلى مطعم كان ينبعث منه لحن أكورديون. نزل بضع درجات، وتوقّف في منتصف السلّم. ووجد نفسه في قبو صغير معتم كفاية ومليء بالأضواء الحمراء. لا شكّ أنّ هيئته كانت غريبة لأنّ الأكورديون بدأ ينغّم بخفوت أكثر، ولأنّ الأحاديث توقّفت والزبائن التفتوا نحوه. في الزاوية كانت ثمّة فتيات يأكلن وشفاههنّ مكتنزة. وكان زبائن آخرون يشربون جعة التشيكوسلوفاكيا السمراء العذبة. وكثيرون كانوا يدخّنون من غير أن يأكلوا. احتلّ مرسو طاولة طويلة بما فيه الكفاية يشغلها رجل واحد. كان الرجل طويلاً ونحيلاً، أصفر الزغب، مكوّمًا على كرسيّه، ويداه في جيبه، يزمّ شفتيه المشقّقتين حول طرف عود ثقاب متضخّمًا من الريق، يمصّه بصوت كريه أو يمرّره من زاوية إلى أخرى من فمه. حين جلس مرسو، لم يكن الرجل يتحرّك، فاستند إلى الحائط، ووجّه عود الثقاب ناحية القادم وثنى عينيه خفية. في هذه اللحظة رأى مرسو نجمة حمراء على عروته.

أكل مرسو قليلاً وبسرعة. لم يكن جائعًا. وكان الأكورديون ينغّم الآن بشكل أوضح. وكان الرجل الذي يحرّكه يحدّق بالقادم الجديد. وفي محاولتين متكرّرتين، حمّل هذا الأخير عينيه بالتحدّي وحاول أن يثبّت نظره. ولكن حُمّاه قد أوهنته. كان الرجل ما يزال ينظر إليه. وفجأة، انفجرت إحدى الفتيات بالضحك، فمصّ الرجل ذو النجمة الحمراء كبريته بقوّة وكانت تنفتح عليها فقّاعة صغيرة من اللعاب. أمّا الموسيقي، فقد أوقف الرقص الصاخب الذي كان

يعزف نغمته، من دون أن يتوقّف عن النظر إلى مرسو ليباشر لحنًا بطيئًا مصفرًا بكلّ غبار القرون. في هذه اللحظة فُتح الباب أمام زبون جديد. لم يره مرسو، على أنّه، من الفتحة، تسلّلت بخفّة رائحة الخلّ والخيار. فملأت دفعة واحدة القبو الصغير المعتم، مختلطة بلحن الأكورديون السحري، مضخّمة فقّاعة اللعاب على كبريتة الرجل، محيلة الأحاديث فجأة أكثر تعبيرًا، كما لو أنّه من حدود الليل الذي كان يغفو على براغ كان كلّ معنى العالم القديم الخبيث والمؤلم يأتي ليلوذ بحرارة هذه القاعة وهؤلاء الرجال. وأحسّ مرسو الذي كان يأكل مربّى مسكّرًا أكثر ممّا ينبغي، والذي كان مقذوفًا فجأة حتى نهاية ذاته، أحسّ أنّ الصدع الذي يحمله في نفسه يتقضقض ويفتحه على نحو أكثر رحابة على القلق والحمّى. نهض فجأة، ونادى النادل، ولم يفهم شيئًا من شروحه، دفع بسخاء وهو يلاحظ من جديد نظرة الموسيقي المنفتحة والمحدّقة أبدًا فيه. وبلغ الباب. وتجاوز الرجل فلاحظ أنّه كان ما يزال يتأمّل الطاولة التي كان قد غادرها. أدرك آنذاك أنّه كان أعمى، وارتقى الدرجات، وإذ فتح الباب، ووجد نفسه كلّه ملقًى في الرائحة الحامزة أبدًا، تقدّم في الطرقات القصيرة في أعماق الليل.

كانت النجوم تتألّق فوق المنازل. لا بدّ أنّه كان بالقرب من النهر الذي يسمع خريره الأصمّ القوي. وأمام شبكة في حائط سميك مملوء بحروف عبريّة، أدرك أنّه في الحيّ اليهودي. فوق الحائط كانت أغصان صفصاف ذات رائحة مسكرة تتساقط من جديد. ومن خلال الشبكة، كان المرء يلاحظ أحجارًا ضخمة سمراء مدفونة بين الأعشاب. كانت تلك مقبرة براغ اليهوديّة القديمة. وعلى بعد

خطوات من هنا، وجد مرسو نفسه من جديد، راكضًا، من الساحة القديمة لدار البلديّة. وأمام فندقه، اضطرّ إلى أن يستند إلى حائط، ويتقيّأ بجهد. وبكلّ الوضوح الذي يمنحه الضعف الأقصى وجد غرفته بلا أدنى خطأ، فاستلقى، وسرعان ما نام.

وفي اليوم التالي، استيقظ على صراخ بائعي الصحف. كان الجوّ ما يزال ثقيلاً، ولكن، بالإمكان التنبّؤ بالشمس وراء الغيوم. وكان مرسو، بالرّغم من ضعفه الخفيف، يحسّ بالتحسّن. ولكنّه كان يفكّر بطول اليوم الذي يتقدّم. أن يعيش هكذا بحضور ذاته، معناه أن يتّخذ الوقت امتداده الأقصى، فتبدو له كلّ ساعة من ساعات النهار وكأنّها تضمّ عالمًا. قبل كلّ شيء، عليه أن يتجنّب أزمات كالتي حدثت البارحة. ومن الأفضل أن يزور المدينة بانتظام. جلس إلى طاولته، بمنامته، ووضع لنفسه برنامج عمل منظّم يشغل كلّ يوم من أيّامه لمدّة أسبوع. ولم ينسَ شيئًا. الأديرة والكنائس الباروكيّة، المتاحف والأحياء القديمة.. ثم أصلح هندامه، ولاحظ إذ ذاك أنّه كان قد نسي أن يشتري مشطًا فنزل، كالبارحة، مشعّثًا وصامتًا أمام البوّاب الذي لاحظ في وضح النهار، شعره المقنفذ، وهيئته المذهولة وسترته التي ينقصها الزرّ الثاني. وعند خروجه من الفندق، تأثّر بلحن أكورديون طفولي وحنون. كان أعمى البارحة، في زاوية الجادّة القديمة، مقرفصًا على كعبيه، يحرّك آلته بالتعبير نفسه، الفارغ المبتسم، كأنّما هو محرَّر، من ذاته، ومنضوٍ كلّه في حركة حياة كانت تتجاوزه. وعند زاوية الشارع، التفت مرسو ووجد من جديد رائحة الخيار، ومعها، قلقه.

كان هذا اليوم ما كان ينبغي أن تكونه الأيّام التي تلته. كان مرسو يستيقظ متأخّرًا، فيزور أديرة وكنائس، يبحث عن ملاذ في رائحتها القبويّة والبخّوريّة، لكنّه وحين يعود إلى النهار، يلتقي خوفه الخفي مع بائعي الخيار المنتشرين في جميع زوايا الشارع. ومن خلال هذه الرائحة كان يرى المتاحف ويفهم غزارة وسرّ العبقريّة الباروكيّة التي تملأ براغ بذهبها وعظمتها: وكانت الأشعّة المذهّبة التي تلمع برفق على المذابح في جوف الظلّ تبدو له مأخوذة من السماء النحاسيّة المكوّنة من ضباب وشمس والمرتفعة غالبًا فوق براغ. وكانت خردوات الحلزونيّات والدويرات، والديكور المعقّد الذي يمكن أن نقول إنّه من الورق المذهّب، كان مثيرًا في شبهه بمذاود الطفل التي تُقام في الميلاد، وكان مرسو يحسّ في ذلك الضخامة والغرابة والتناسق الباروكي، كأنّه رومنسيّة، محمومة، طفوليّة وطنّانة يدافع بها الإنسان عن نفسه ضدّ شياطينه الخاصّة. والإله الذي يُعبد هنا، هو الإله الذي يُخشى ويبجّل، لا الإله الذي يضحك مع الإنسان أمام ألاعيب البحر والشمس الودّيّة. وحين خرج مرسو من رائحة الغبار والعدم التي تخيّم تحت القبب المعتمة، كان يجد نفسه بلا وطن. وفي كلّ مساء، كان يذهب إلى أديرة النسّاك التشيكيين، في غرب المدينة، وفي حديقة الدير كانت الساعات تتطاير مع الحمام. وكانت الأجراس تقرع بعذوبة على العشب. ولكن كانت حُمّاه هي التي تتحدّث أيضًا إليه. على أنّ الوقت كان يمرّ كذلك. ولكن تلك كانت الساعة التي تكون فيها الكنائس والآثار مغلقة والمطاعم غير مفتوحة بعد. وهنا كان الخطر. كان مرسو يتنزّه على ضفاف فلتافا المليئة بالحدائق والجوقات الموسيقيّة في النهار المنتهي. وكانت مراكب صغيرة

تصعد من جديد النهر من سدّ إلى آخر. ومرسو يصعد معها، يترك الضجيج المصمّ وغليان هويس القناة، ويستعيد شيئًا فشيئًا سلام المساء وسكونه، ثم يمشي من جديد لملاقاة هدير كان يتضخّم حتى الضجيج. وحين وصل إلى السدّ الجديد، ظلّ ينظر إلى القوارب الصغيرة الملوّنة وهي تحاول عبثًا أن تجتاز السدّ من غير أن تنقلب، حتى تمكّن أحدها من أن يجتاز النقطة الخطرة، فعلا الصياح على صوت المياه. وكان هذا الماء المندفع والمشحون بالأصوات والأنغام وروائح الحدائق، المليء بالأضواء النحاسيّة لسماء المغيب وبالظلال الملتوية والمتنافرة لتماثيل جسر شارل، كان هذا الماء يحمل لمرسو الوعي المؤلم الحادّ لوحدة بلا حماسة لم يكن للحبّ بعد أيّ مكان فيها. وحين توقّف أمام عطر المياه والأوراق الذي يتصاعد إليه، منقبض الحلق، كان يتخيّل دموعًا لم تكن لتأتي. وكان يكفيه مجرّد صديق أو ذراعان مفتوحتان. ولكنّ الدموع كانت تتوقّف عند حدود عالم بلا حنوّ، كان غارقًا فيه.
وفي مرّات أخرى حين كان يجتاز جسر شارل، في هذه الساعة من المساء أيضًا، كان يتنزّه في حيّ هردستين، فوق النهر، المقفر الصامت على بضع خطوات من أكثر أحياء المدينة ازدحامًا. كان يتيه بين هذه القصور الفخمة، ويحاذي المتنزّهات الواسعة المشجرة، المبلّطة على طول الحواجز المنحوتة حول الكاتدرائيّة.
وبين جدران القصور العالية كانت أقدامه تصدي في السكون. وكان صوت أصمّ يتصاعد من المدينة إليه. ولم يكن هناك بائع خيار في هذا الحيّ، ولكنّه أحسّ بشيء مقبض في هذا الصمت وهذه العظمة، حتى إنّ مرسو كان ينتهي دائمًا بأن يعود فيهبط نحو الرائحة أو النغم اللذين يكونان من الآن فصاعدًا كلّ وطنه. كان

يأكل في المطعم الذي سبق أن اكتشفه والذي ظلّ، بالنسبة له على الأقلّ، مألوفًا. وكان مكانه أمام الرجل ذي النجمة الحمراء الذي يأتي فقط مساء. يشرب كأس جعة. ويعلك كبريتته. وعند العشاء، أيضًا، كان الأعمى يعزف، ومرسو يأكل بسرعة ويدفع ويعود إلى فندقه نحو نوم طفل محموم لم يفته ليلة واحدة.

كلّ يوم كان مرسو يفكّر في الذهاب، وكلّ يوم كان يزداد غوصًا في التخلّي، فتضعف إرادته للسعادة في أن تقوده. لقد مضى عليه أربعة أيّام في براغ لم يكن قد اشترى فيها بعد المشط الذي يحسّ غيابه كلّ صباح. على أنّه كان لديه الشعور المبهم بنقص ما، وهذا ما انتظره بغموض. وذات مساء، توجّه نحو مطعمه في الطريق الصغيرة حيث التقى بالرائحة في المساء الأوّل. والحقّ أنّه قد بدأ يحسّها قادمة عندما أوقفه شيء ما، قبل المطعم بقليل، على الرصيف المقابل وجعله يقترب. كان ثمّة رجل ممدّد على الرصيف مشتبك الذراعين ورأسه مائل على خدّه الأيسر. وكان ثلاثة أشخاص أو أربعة يستندون إلى حائط كما لو أنّهم ينتظرون شيئًا ما، على هدوئهم الكبير. كان أحدهم يدخّن. والآخرون يتحدّثون بصوت خافت. ولكن رجلاً مشمّر الأكمام، وسترته على ذراعه، ولبديّته مرتدّة إلى الخلف، يومئ حول الجسد رقصة وحشيّة، نوعًا من رقصة هنديّة موقّعة ومرهقة. وفوق، كان نور مصباح بعيد خافت جدًّا يتآلف مع الضوء الأصمّ الذي انبعث من المقهى على بعد خطوات. هذا الرجل الراقص بلا توقّف، وهذا الجسد ذو الذراعين المتشابكتين، وهؤلاء المتفرّجون الهادئون إلى هذا الحدّ، وهذا التناقض المضحك، وهذا الصمت الجديد، كان في ذلك كلّه

لحظة توازن مضى مكوّنة أخيرًا من التأمل والبراءة بين ألاعيب الظلّ والضوء المطبقة قليلاً، هذه اللحظة التي كان يبدو لمرسو أنّ كلّ شيء فيها يهوي في الجنون. وازداد قربًا. كان رأس القتيل يسبح في الدم. وعلى الجرح، كان الرأس قد انحنى، وكان الآن يستكين. في هذه الزاوية البعيدة من براغ، بين الأشعّة النادرة على البلاط الدهني، والانزلاقات الطويلة المبتلّة للسيّارات التي تمرّ على بعد خطوات من هنا، والعودة المتباعدة النائية للحافلات الصاخبة المتباعدة. في هذه الزاوية، كان الموت يتكشّف عذبًا وملحًّا. وكان نداؤه بالذات ونفحه الرطب هو ما كان يحسّه مرسو في اللحظة التي مضى فيها بخطى كبيرة من غير أن يلوي. وفجأة، قدمت الرائحة لتهزّه، وكان قد نسيها، فدخل إلى المطعم وجلس إلى طاولته. كان الرجل هنا، ولكن من دون كبريتته. وخُيّل لمرسو أنّه يرى شيئًا من الشرود في نظراته. طرد الفكرة السخيفة، التي كانت مَثُلَت أمامه. ولكن كلّ شيء كان يدور في رأسه. وقبل أن يطلب أيّ شيء، هرب فجأة، وركض حتى فندقه وارتمى على سريره. كانت لذعة حارّة تحرق صدغه. وكان فارغ القلب منقبض البطن وكأن تمرّده ينفجر. كانت صور من حياته تضخم عينيه. شيء ما في داخله يزعق وراء حركات نساء وأذرع تتفتّح وشفاه دافئة. ومن أعماق ليالي براغ المؤلمة، وسط روائح الخلّ والأنغام الطفوليّة، كان يتصاعد إليه الوجه القلق للعالم الباروكي القديم الذي كان قد صاحب حُمّاه. جلس على سريره، وهو يتنفّس بجهد، وبعيون أعمى وحركات آلة. كان درج المنضدة مفتوحًا ومكسوًّا بصحيفة إنكليزيّة قرأ فيها مقالاً كاملاً. ثم عاد فارتمى على سريره. كان رأس الرجل منحنيًا على الجرح، وفي هذا الجرح كان

بالإمكان دسّ أصابع. نظر إلى يديه وإلى أصابعه، فانبعثت من قلبه رغبات طفل. وكانت حماسة حادّة وخفيّة تتفاقم فيه مع الدموع، فإذا هو حنين إلى مدن مليئة بالشمس والنساء مع أمسيات خضراء تضمّد الجروح. وانفجرت الدموع. وفي نفسه، كانت بحيرة كبيرة من الوحدة والصمت تتّسع، وعليها كان يركض لحنُ خلاصِه الحزين.

الفصل الثاني

في القطار الذي قاده نحو الشمال، كان مرسو يتأمّل يديه. كانت السماء تنبئ بعاصفة أثار جري الترام فيها موجةً من الغيوم المنخفضة الثقيلة. كان مرسو وحده في هذه الحافلة المفرطة السخونة. وقد ذهب مسرعًا في الليل، وإذ أصبح الآن وحيدًا أمام الصبيحة القاتمة، ترك لكلّ عذوبة هذا المنظر البوهيمي أن تتسلّل إلى نفسه، حيث انتظار المطر بين الصفصافات الحريريّة العالية ومداخن المعامل البعيدة يخلّف ما يشبه الرغبة في الدموع. كان ينظر إلى اللافتة البيضاء بعباراتها الثلاث: «من الخطر الانحناء إلى الخارج». ومن هنا، كانت يداه، أشبه بحيوانين وحشيين نابضين على ركبتيه، تناديان نظراته. إحداهما، اليسرى، طويلة لدنة، والأخرى كثيرة العقد وعاضلة. كان يعرفهما، ويتعرّف إليهما ثانيةً، وفي الوقت نفسه يشعر بهما متمايزتين، كأنّما هما جديرتان بأعمال لم يكن لإرادته أيّ شأن فيهما. وقد أقبلت إحداهما تستند إلى جبينه لتقيم حاجزًا للحمّى التي تطرق صدغيه. وانزلقت الأخرى على طول سترته وانسلّت إلى جيبه لتأخذ لفّافة، ولكنّها ما لبثت أن ارتدّت إذ وعى هذه الرغبة في التقيّؤ التي كانت تخلّفه واهنًا بلا

قوّة. وإذ عادتا إلى ركبتيه، استسلمتا، واتّخذت راحتاه شكل كأس. فقدّمتا لمرسو وجه حياته وقد ارتدّت إلى اللامبالاة ووهبت نفسها لكلّ من كان يريد أخذها.

ساقر لمدّة يومين. ولكنّه في هذه المرّة، لم تكن غريزة الهرب هي التي تدفعه. كانت رتابة هذا السباق نفسها تغمره. وكانت هذه الحافلة التي تقوده خلال نصف أوروبا تتركه بين عالمين. لقد استقلّها وهو على وشك أن يغادرها. كانت تسحبه خارج حياة يريد أن يمحو حتى ذكراها لكي تقوده إلى عتبة عالم جديد تصبح فيه الرغبة مِلِكَةً. ولم يضجر مرسو مرّةً واحدة. كان يقبع في زاويته، يكاد لا يُزعجه شيء. ينظر إلى يديه، ثم إلى المنظر، ويفكّر. راق له أن يمدّد رحلته حتى برسلو، لن يقوم إلّا بجهد يسير عند الجمرك ليبدّل التذكرة. يريد أن يستمرّ بعد في مواجهة حرّيّته. كان تعبًا، ولم يكن يحسّ في نفسه القدرة على التحرّك. كان يتلقّى في ذاته أصغر أجزاء قوّته وأدقّ آماله، يشدّها ويعيد جمعها، وفي ذاته يعيد صنع ذاته، ويصنع مصيره الآتي في آن واحد. كان يحبّ هذه الليالي الطويلة التي ينسحب فيها القطار على السكك الزلقة، ومروره العاصف في المحطّات الصغيرة حيث الساعة وحدها مضيئة، وانكباحه المفاجئ قبل أضواء المحطّات الكبيرة، هذا الوكر الذي ما يكاد يُلاحَظ حتى يكون قد بدأ يبتلع القطار ويصبّ في حافلاته ذهبه الوافر وضوءه وحرارته. كانت مطرقات ترنّ على الدواليب، والقاطرة تحمحم بكلّ بخارها، وحركة العامل الآليّة، وهو يخفض قرص المرور الأحمر، تقذف مرسو في السباق المجنون للترام حيث كان صحوه وقلقه وحدهما يسهران. ومن

جديد كان تلاعب الظلال والأضواء المتشابك في الحافلة، وغطاء السواد والذهب. درسد، يوتزن، غرليتز، ليغنتز. كان طوال الليل وحيدًا بمواجهة ذاته، مالكًا كلّ وقته ليشكّل حركات حياة قادمة، وكان الصراع الصبور مع الفكرة التي تهرب عند منعطف محطّة، ثم تستسلم فيقبض عليها وتطارَد، وتلتحق بمحصّلاتها ثم تهرب ثانية أمام رقص الأسلاك الملتمعة بالمطر والأضواء. كان مرسو يبحث عن الكلمة أو الجملة التي ستعبّر عن أمل قلبه والتي سينتهي فيها قلقه. وفي حالة الضعف التي يعانيها، كان بحاجة إلى صِيَغ. وكان الليل والنهار ينقضيان في هذا الصراع العنيد مع الفعل والصورة اللذين سيحدّدان بعد الآن لون نظرته كلّه أمام الحياة، والحلم الحنون أو الشقيّ الذي يكوّنه عن مستقبله. كان يغمض عينيه. إنّ المرء بحاجة إلى وقت لكي يعيش. وككلّ عمل فنّي، تتطلّب الحياة من المرء أن يفكّر بها. وكان مرسو يفكّر بحياته وينزّه وعيه المضطرب وإرادته للسعادة في حافلة كانت في تلك الأيّام، بالنسبة له في أوروبا، شبيهة بإحدى تلك الحجرات التي يتعلّم فيها الإنسان أن يعرف الإنسان عَبْرَ ما يتجاوزه.

وفي صباح اليوم التالي، وبالرّغم من البلد المنبسط، فإنّ القطار يتباطأ بشكل ملحوظ. كان على بعد ساعات من برسلو، وكان النهار يتفتّح على سهل سيليزي الطويل، اللزج من الوحل، حيث لا شجرة، تحت سماء يغطّيها ويملأها المطر. وعلى مدّ البصر وعلى مسافات منتظمة، كانت طيورٌ كبيرةٌ سوداء ذات أجنحة برّاقة تطير أسرابًا على ارتفاع أمتار قليلة من الأرض، عاجزة عن الارتفاع أعلى من ذلك تحت السماء الثقيلة كالبلاطة. كانت تحوم

دوائر في طيران بطيء وثقيل، وأحيانًا كان أحدها يخرج عن السرب، فيلامس الأرض، حتى ليختلط بها، ويبتعد بالطيران اللزج نفسه إلى ما لا نهاية حتى يبتعد مسافة كافية البعد لكي ينفصل كنقطة سوداء في السماء البادئة.

كان مرسو قد مسح بيديه بخار الزجاج، وكان ينظر بشغف، من خلال الخطوط الطويلة التي قد تركتها أصابعه بما يكفي على الزجاج. ومن الأرض الكدرة حتى السماء الفاقدة اللون، كانت ترتفع في نفسه صورة لعالم جاحد كان، لأوّل مرّة، يعود أخيرًا إلى ذاته. وعلى هذه الأرض المُعادة إلى يأس البراءة، كان مسافرًا تائهًا في عالم بدائي، يستعيد روابطه، وبقبضة مشدودة إلى صدره، ووجه مسحوق على الزجاج، كان يمثّل اندفاعه نحو ذاته ونحو اليقين بالعظمة التي كانت تنام في نفسه. كان يودّ لو ينسحق في هذا الوحل، ويغوص في الأرض بهذا الحمّام من الصلصال وينتصب على السهل الذي لا حدود له، مغطّى بالوحل، مشرّع اليدين أمام سماء الإسفنج والشحم، كأنّما هو في وجه رمز الحياة المؤنس الرائع، ليؤكّد تضامنه مع العالم في أشدّ صوره تنفيرًا، ويعلن عن نفسه شريكًا للحياة حتى في جحودها وقذارتها. وأخيرًا انفجر الاندفاع الهائل الذي استبدَّ به لأوّل مرّة منذ رحيله. وسحق مرسو دموعه وشفتيه بالزجاج البارد. ومن جديد، تغبّش الزجاج واختفى السهل.

بعد ساعات، وصل إلى برسلو. ومن بعيد بدت له المدينة كغابة من مداخن المعامل وقبب الكاتدرائيّات. ومن قريب، كانت مبنيّة من القرميد والأحجار السوداء. وكان رجال الخوذات ذات

المقدّمات القصيرة يسيرون على مهل. وقد تبعهم، وأمضى الصبيحة في مقهى عمّالي كان شابّ يعزف فيه على الهرمونيكا: ألحانًا ذات بلادة قويّة وثقيلة تريح النفس. قرّر مرسو أن يعود فيهبط نحو الجنوب، بعد أن يكون قد اشترى مشطًا. وفي اليوم التالي، كان في ڤيينّا، فنام قسمًا من النهار والليل بأكمله. وعندما استيقظ، كانت الحمّى قد سقطت كلّيًا. وأتخم نفسه بالبيض برشت والقشدة الطازجة عند الفطور، ثم خرج وقلبهُ مُعَفّر بعض الشيء، في صبيحة تخترقها الشمس والمطر.

كانت ڤيينّا مدينة منعشة. ولم يكن فيها شيء يُزار. كانت كاتدرائيّة القدّيس إتيان المفرطة الضخامة تضجره. وقد فضّل عليها المقاهي التي كانت تواجهها، وفي المساء، مرقصًا صغيرًا أمام ضفاف القنال. وفي النهار يتنزّه على طول «الرنغ»، وسط ترف الواجهات الجميلة والنساء الأنيقات: كان يتمتّع، ردحًا من الزمن، بهذا الديكور الخفيف المترف الذي يفصل الإنسان عن ذاته في مدينة هي أقلّ المدن طبعيّة في العالم. ولكنّ النساء كنّ جميلات، والأزهار نامية باهرة في الحدائق؛ وعلى «الرنغ»، في المساء الهابط، بين الجمع المتألّق الرخيّ الذي كان يتنزّه، كان مرسو يتأمّل، على قمّة الأنصاب، الانطلاق العبثي للخيول الحجريّة في المساء الأحمر. آنذاك فقط تذكّر روز وكلير، صاحبتيه. ولأوّل مرّة منذ رحيله، كتب رسالة. والحقيقة أنّ فيض صمته هو ما كان ينسكب على الورق.

«صغيرتيّ:

أكتب إليكما من ڤيينّا. لا أدري ما ألتما إليه. أمّا أنا، فإنّني

أكسب حياتي بالسفر. رأيت بمرارةٍ قلب كثيرًا من الأشياء الجميلة. هنا، أخلى الجمال المكان للحضارة. وهذا مريح. إنّني لا أزور كنائس ولا أمكنة أثريّة. إنّني أتنزّه على «الرنغ». وحين يأتي المساء فوق المسارح والقصور الباذخة، يلقي انطلاق الخيول الحجريّة الأعمى عند المغيب الأحمر في نفسي مزيجًا فريدًا من المرارة والسعادة. في الصباح أفطر بيضًا برشت وقشدة طازجة. أنهض متأخرًا، والفندق يحيطني بمجاملاته، إنّني متأثر لأسلوب رؤساء خدم الفندق ومتخم بالطعام اللذيذ (أوه ما أطيب هذه القشدة الطازجة!). يوجد هنا مناظر جميلة ونساء جميلات. ولا تنقصني إلّا شمس حقيقيّة.

ما الذي تفعلانه؟ تحدّثا عنكما وعن الشمس إلى المسكين الذي لا يمسكه شيء في أيّ مكان والذي يظلّ صديقكما المخلص: باتريس مرسو».

ذلك المساء، حين انتهى من الكتابة، عاد إلى المرقص. كان قد حجز لنفسه السهرة مع إحدى الساقيات، هيلين، التي تعرف بعض الفرنسيّة وتفهم ألمانيّته الرديئة. وحين خرج من المرقص في الثانية صباحًا، أعادها إلى منزلها، وفعل الحبّ كأحسن ما يُفعل في العالم، ووجد نفسه في الصباح، عاريًا، في سرير غريب، ملتصقًا بظهر هيلين التي كان يتأمّل بلامبالاة وابتهاج ردفيها الطويلين وكتفيها العريضتين. وذهب من غير أن يريد إيقاظها، ودسّ ورقة في أحد حذاءيها. وفي اللحظة التي بلغ فيها الباب سمع من يناديه: «ولكنّك يا حبيبي قد أخطأت». فعاد نحو السرير: كان قد أخطأ بالفعل، فقد كان يجهل العملة النمسويّة، لذلك فقد

ترك ورقة بخمسمئة شلنغ بدلاً من مئة. قال وهو يبتسم: «لا. إنّها لكِ. لقد كنت لطيفة جدًّا». والتمع وجه هيلين، المنقّط بالنمش تحت الشعر الأشقر والمشعّث، بابتسامة. وفجأة انتصبت واقفة على السرير وقبّلته على الخدّين. وفجّرت هذه القبلة، الأولى بلا شكّ التي أعطته إيّاها من كلّ قلبها، فجّرت في مرسو دفعة من التأثّر. فألقاها على السرير وغطّاها، ثم رجع إلى الباب ونظر إليها وهو يبتسم. قال: «وداعًا». وجحظت هيلين بعينيها فوق الغطاء المرفوع تحت الأنف وتركته يختفي من غير أن تجد كلمة.

وبعد أيّام تلقّى مرسو جوابًا مؤرّخًا من مدينة الجزائر:

«عزيزنا باتريس.

نحن في مدينة الجزائر. ستكون صغيرتاك سعيدتين جدًّا لرؤيتك من جديد. فإذا لم يكن ثمّة ما يمسكك في أيّ مكان، فتعال إلى الجزائر. إنّنا نستطيع أن ننزلك في «البيت». أمّا نحن، فسعيدتان: إنّنا طبعًا نشكو بعض الخجل، ولكن ذلك بالأحرى بسبب اللياقة. وأنّ لذلك علاقة بالأحكام المسبقة. إذا كنت مهتمًّا بأن تكون سعيدًا، فتعال جرّب ذلك هنا. فهذا أفضل من أن تكون ضابط ـ صفّ مجدَّد التطوّع. نقدّم جبهتنا لقبلاتك الأبويّة.

روز، كلير، كاترين».

ملاحظة ـ تحتجّ كاترين على كلمة «أبويّة». كاترين تسكن معنا، وستكون، إن أردت ذلك، صغيرتك الثالثة».

قرّر أن يعود إلى مدينة الجزائر عن طريق جنوى. وكما يحتاج آخرون إلى عزلة قبل أن يتّخذوا قراراتهم الخطيرة ويلعبوا اللعبة الأساسيّة لحياة ما، فقد كان هو، المسمّم بالوحدة والغرابة،

بحاجة إلى أن يحتمي بالصداقة والثقة وأن يتذوّق أمانًا ظاهرًا قبل أن يبدأ لعبته.

وفي القطار الذي أقلّه إلى جنوى عن طريق إيطاليا الشماليّة، كان ينصت إلى آلاف الأصوات التي تغنّي فيه نحو السعادة. وعند أوّل شجرة شربين منتصبة على الأرض الطاهرة، ارتخى. كان ما يزال يحسّ ضعفه وحمّاه. ولكنّ شيئًا ما في نفسه قد استرخى وتمدّد. وفيما بعد، بقدر ما كانت الشمس تتقدّم في النهار ويقترب البحر، تحت السماء الكبيرة المتوهّجة المتحفّزة حيث تسيل على شجرات الزيتون المرتعشة أنهار من الهواء والضوء، كان الهوس الذي يحرّك العالم يتجاوب مع حماس قلبه. وكان صوت القطار والثرثرة الطفوليّة التي تحيط به في المقصورة المكتظّة، وكلّ ما يضحك ويغنّي حوله، يتناغم ويصاحب نوعًا من الرقص الداخلي ألقاه، لمدّة ساعات، جامدًا في أربع أرجاء المعمورة ثم صبّه أخيرًا مبتهجًا منذهلاً في جنوى المصمّة التي كانت تتفجّر صحّة أمام خليجها وسمائها، حيث اللذّة والكسل يتصارعان حتى المساء. كان متعطّشًا للحبّ والمتعة والتقبيل. وقد ألقته الآلهة التي كانت تحرقه، في البحر، في زاوية صغيرة من المرفأ، حيث تذوّق القطران والملح ممزوجين، وأضاع أقصى مداه لفرط ما سبح. تاه فيما بعد في الطرقات الضيّقة المليئة بروائح الحيّ القديم، وترك الألوان تزأر من أجله، والسماء تستنفد نفسها فوق البيوت تحت وطأة شمسها، والقطط ترتاح بين القذارات والصيف. مضى إلى الطريق التي تشرف على جنوى، وترك البحر كلّه المحمّل بالعطر والأضواء يصعد إليه، في انتفاخ طويل. وكان يحضن الحجر

الساخن الذي كان قد جلس عليه، وهو يغمض عينيه، ليفتحهما على هذه المدينة التي يزمجر فيها زخم الحياة بذوق رديء مهيّج. وفي الأيّام التي تلت، كان يحبّ أيضًا أن يجلس على الحاجز الذي ينحدر نحو المرفأ، وعند الظهر ينظر إلى الفتيات الصبيّات يمررن عائدات من المكاتب إلى المرفأ. كانت الفتيات ينتعلن الصنادل، محرَّرات النهود في أثواب زاهية خفيفة، فكنّ يتركن مرسو جافّ اللسان، خافق القلب، برغبةٍ كان يجد فيها في آن واحد حرّيّة وتبريرًا. وفي المساء، كانت النساء أنفسهنّ، مَنْ يلتقي بهنّ في الطرقات، فيتبعهنّ يرافقه في أحشائه الوحش الحارّ الملتفّ بالرغبة الذي يتحرّك بعذوبة ضارية. وخلال يومين، تحرّق في هذه الحميّا اللاإنسانيّة. وفي اليوم الثالث غادر جنوى إلى مدينة الجزائر.

وطوال الرحلة، كان يتأمّل ألاعيب الماء والضوء، في الصباح، وفي قلب النهار وفي المساء على البحر، فيؤالف قلبه مع دقّات السماء البطيئة ويعود إلى ذاته. كان يحذر من ابتذاليّة بعض الشفاءات. وحين كان يتمدّد على الجسر، كان يدرك أنّه لم يكن له أن ينام بل أن يسهر، أن يسهر ضدّ الأصدقاء، وضدّ رفاهيّة النفس والجسد. ولقد كان عليه أن يبني سعادته وتبريره. وستكون المهمّة الآن بالنسبة له أيسر بلا شكّ. وحيال السلام الغريب الذي ينفذ إليه أمام المساء الذي يغدو فجأة أكثر رطوبة على البحر، والنجمة الأولى التي تقسو ببطء في السماء حيث الأشعّة تموت خضراء، لتحيا من جديد صفراء.. حيال ذلك كلّه، كان يحسّ بعد هذا الصخب الكبير وهذه العاصفة أنّ ما كان في نفسه غامضًا ورديئًا

يرسب ليبقى من بعده الماء الصافي الشفّاف لنفس تعود إلى الطيبة والعزم. كان يرى بوضوح. وقد أمّل طويلاً بحبّ امرأة. على أنّه لم يكن قد صُنع من أجل الحبّ. فخلال حياته، في مكتب المرفأ، وغرفة نومه، ومطعمه وعشيقته، كان قد لاحق، ببحث فريد، سعادةً كان في أعماق ذاته، وكجميع الناس، يعتقدها مستحيلة. كان قد لعب لعبة إرادة أن يكون سعيدًا. أبدًا لم يكن قد أرادها بتصميم واع محرّر. أبدًا وحتى الآن. وابتداء من هذه اللحظة، وبسبب حركة واحدة محسوبة بكلّ وعي، كانت حياته قد تغيّرت، والسعادة تبدو له ممكنة. بلا شكّ قد وُلد في الآلام هذا الكائن الجديد. ولكن أيّة قيمة كانت له إذا قيس بالمهزلة المهينة التي لعبها فيما مضى. كان يرى مثلاً، أنّ ما شدّه إلى مارت، كان الغرور أكثر ممّا هو الحبّ، بما في ذلك معجزة الشفتين اللتين مدّتهما له، تلك المعجزة التي لم تكن سوى الدهشة الفرحة لقدرة تتعرّف على ذاتها وتتفتّح على الانتصار. وكلّ تاريخ حبّه كان في الحقيقة استبدال هذه الدهشة الأوّليّة بيقين، وتواضعه بغرور. كان قد أحبّ فيها تلك الأمسيات التي يظهران فيها في دور السينما والتي كانت الأنظار تتّجه فيها نحوها، وتلك اللحظة التي قدّمها فيها إلى العالم. كان يحبّ فيها ذاته وقدرته وطموحه لأن يحيا. ولعلّ لذّته نفسها ومذاق جسده كلّه العميق ربّما كان صادرًا من هذه الدهشة الأولى لامتلاك جسد جميل جمالاً فريدًا، والسيطرة عليه وإذلاله. والآن يُدرك أنّه لم يكن مصنوعًا لهذا الحبّ، بل للحبّ البريء العنيف لإله أسود سيتعبّده بعد الآن.

وكما يحدث غالبًا، أحسن ما في حياته قد تركّز حول أسوأ ما

قد كان فيها: كلير وصديقاتها، وزغرو وإرادته للسعادة حول مارت. وكان يدرك الآن أنّ على إرادته للسعادة أن تتقدّم. ولكن لأجل ذلك أدرك أنّ عليه أن يتوافق مع الزمن، وأنّ امتلاك الوقت كان في آن واحد أجمل التجارب وأخطرها، والبطالة ليست شؤمًا إلّا على الأردياء. بل إنّ كثيرين لا يستطيعون أن يثبتوا أنّهم غير أردياء. وكان هو قد امتلك هذا الحقّ. ولكن كان ما يزال يفتقر إلى إقامة الدليل. شيء واحد قد تغيّر. كان يحسّ نفسه حرًّا تجاه ماضيه، وتجاه ما كان قد فقده. لم يكن يريد إلّا هذا الحصر وهذا الحيّز المغلق في ذاته، وهذه الحميا الواعية الصبور أمام العالم.

كان يودّ فقط أن يضمّ حياته بين يديه، كما يُضغط خبز حارّ ويُنهك، أو كما فعل في ليلتي القطار الطويلتين اللتين كان يستطيع أن يتحدّث فيهما مع نفسه ويتهيّأ للحياة. كان يودّ أن يلحس حياته كقطعة حلوى، أن يكوّنها، أن يشحذها وأخيرًا أن يحبّها. هنا، كان يكمن كلّ هواه. وحضور ذاته هذا لذاته كان جهده بعد الآن مبذولاً لكي يبقيه أمام جميع وجوه حياته، حتى مقابل وحدة كان يدرك الآن كم هو صعب احتمالها. إنّه لن يخون أبدًا. فعنفه كلّه يساعده في ذلك، والنقطة التي يحمله إليها، كان حبّه يلتقي عندها كشهوة جامحة للحياة.

كان البحر يتكسّر بهدوء على جوانب المركب. والسماء تمتلئ بالنجوم، وكان مرسو صامتًا يحسّ في نفسه قوى فائقة عميقة ليحبّ هذه الحياة ويُعجب بها، هذه الحياة ذات الوجه المصنوع من الدموع والشمس، هذه الحياة في الملح والحجر الحارّ، وكان يخيّل له أنّ جميع قوى الحبّ واليأس لديه ستتضافر لكي تداعبها.

هنا كان يكمن فقره وغناه الفريد. كان ذلك كما لو أنّه، انطلاقًا من الصفر، يستأنف اللعبة، ولكن مع وعيه لقواه وللحمّى الواعية التي تضغط عليه في وجه مصيره.

وبعد ذلك كانت مدينة الجزائر، والوصول البطيء عند الصباح، وشلّال القصبة الباهر فوق البحر، والتلال والسماء، والجون بذراعيه المبسوطتين، والبيوت بين الأشجار ورائحة المرافئ التي بدأت تقترب. وإذ ذاك لاحظ مرسو أنّه، منذ فيينّا، لم يكن قد فكّر مرّة واحدة بزغرو على أنّه الرجل الذي كان قد قتله بيديه. وعرف في نفسه ملكة النسيان، تلك التي لا يمتلكها إلّا الطفل والعبقري والبريء. وبريئًا، مبلبلاً بالفرح، أدرك أخيرًا أنّه كان مخلوقًا للسعادة.

الفصل الثالث

يتناول باتريس وكاترين فطورهما تحت الشمس، على السطيحة. ترتدي كاترين ثياب السباحة، و«الفتى»، كما تدعوه صديقاته، يرتدي «السليب»، وحول عنقه منشفة. إنّهما يأكلان بندورة مع الملح، وسلطة البطاطا، وعسلاً وفاكهة بكمّيّة كبيرة، ويضعان درّاقًا ليبرد في الثلج، وحين يرفعانه، يلحسان قطرات العرق عن زغب القشرة المخملي. كما أنّهما يعدّان عصير العنب ويشربانه وهما يرفعان وجهيهما نحو الشمس من أجل تسميرهما (على الأقلّ باتريس الذي كان يعلم أنّ السمرة في صالحه).

قال باتريس، وذراعه ممدودة نحو كاترين:

ـ استنشقي الشمس.

ولحست الذراع، وقالت:

ـ أجل، استنشق أنت أيضًا.

فاستنشق ثم تمدّد وهو يلامس خاصرتيه.. أمّا هي فقد استلقت على بطنها وأنزلت ثيابها حتى كليتيها.

ـ هل أنا فاحشة؟

قال الفتى الذي لم يكن ينظر:

ـ لا.

وسالت الشمس وتباطأت على وجهها، كانت مسامّه رطبة بشكل طفيف، فأخذ يتنفّس هذه النار التي تغمره وتُنيمه. خمّرت كاترين شمسها وتأوّهت وأنّت، ثم قالت:

ـ هذا لذيذ.

قال الفتى:

ـ نعم.

كان البيت معلّقًا عند قمّة تلّة يُرى الجون منها. وفي الحيّ، كانوا يسمّونه «بيت الطالبات الثلاث». يُصعد إليه بطريق شديد الوعورة، يبدأ في شجرات الزيتون وينتهي بها. وفي وسطه، كان يشكّل نوعًا من المنبسَط، على طول حائط رمادي مغطّى برسوم داعرة واستشهادات سياسيّة، كانت قراءتها تُعيد النَفَس للمسافر المنهوك. وبعد ذلك، كانتِ شجرات الزيتون أيضًا، وغسيل السماء الأزرق بين الأغصان، ورائحة المصطكا على طول الحقول المحمرّة حيث كانت أقمشة بنفسجيّة صفراء وحمراء تجفّ. كان المرء يصل، وقد غرق في ضيق شديد من العرق والتنفّس، يدفع حاجزًا صغيرًا أزرق وهو يتحاشى مخلب الجهنّميّات، ويبقى عليه أيضًا أن يتسلّق سلّمًا واقفًا كسيبة، ولكنّه مغطّى بظلال زرقاء كان بالإمكان عندها تخفيف العطش. وكانت روز وكلير وكاترين والفتى يسمّونه «البيت أمام العالم». كان مشرّعًا بأكمله على الطبيعة، كسلّة منطاد متدلّ في السماء الباهرة فوق رقص العالم الملوّن. وابتداء من الجون حتى المنحنى الكامل، في الأسفل، كان نوع من

الاندفاع يمزج الأعشاب والشمس ويحمل الصنوبر والشربين والزيتونات المغبرّة والأوكالبتوس حتى أقدام البيت. وفي قلب هذه الهبة كانت تزدهر، وفقًا للفصول، زهور النسرين البيضاء، والميموزا، وزهور العسل هذه التي تترك عطرها يصعد من جدران البيت في أمسيات الصيف. كان «البيت أمام العالم» بغسيله الأبيض وسقوفه الحمراء، وبابتسامات البحر تحت السماء المشبوكة بلا ثنيّة من أوّل الأفق حتى منتهاه، يشرّع عنبيّاته العريضات على هذا المعرض من الألوان والأضواء. ولكن، في البعيد، كان خطّ من الجبال العالية البنفجسيّة يلتقي بالجون عند منحدره الأقصى فيحتوي هذه النشوة في رسمها البعيد. وإذ ذاك، لا يمكن لأحد أن يتأفّف من الطريق الشاقّ ومن التعب. كان على المرء كلّ يوم أن يكتسب فرحه.

أن يعيش الإنسان هكذا أمام العالم، وأن يحسّ ثقله، وأن يرى وجهه يشرق كلّ يوم ثم يخبو للغد، ويحترق بكلّ شبابه، فقد كان ذلك يمنح سكّان البيت الأربعة وعيًا بحضورٍ كان بالنسبة لهم حكمًا وتبريرًا. فالعالم، هنا، يصبح شخصًا، يُحسب بين أولئك الذين نستمدّ منهم النصيحة بقبول أكثر، أولئك الذين لم يقتل التوازن عندهم الحبّ. كانوا يتّخذونه شاهدًا:

كان باتريس يقول في معرض أيّ حديث: «أنا والعالم، لا نقرّكم».

أمّا كاترين التي كان العريّ بالنسبة لها يعني التخلّص من الأحكام المسبقة، فقد كانت تفيد من غياب الفتى لتتعرّى على السطيحة، وتتأمّل تبدّل ألوان السماء. كانت تقول، على الطاولة،

بلهجة من الغرور الحسّي:

ـ كنت عارية أمام العالم.

وكان باتريس يقول باحتقار:

ـ أجل. إنّ النساء يفضّلن بالطبع أفكارهنّ على أحاسيسهنّ.

وعندها كانت كاترين تقفز لأنّها لم تكن تريد أن تكون مثقّفة. وكانت روز وكلير تصرخان معًا:

ـ اسكتي كاترين، إنّك على خطأ.

ذاك أنّه كان من المتعارف عليه أنّ كاترين كانت دائمًا على خطأ، ما دامت هي التي كان الجميع يحبّها بالطريقة نفسها. كانت تملك جسدًا وازنًا ومرسومًا بلون الخبز المحروق، ولديها الغريزة الحيوانيّة بكلّ ما هو أساسي في العالم. ولم يكن أحد أجدر منها بتمييز اللغة العميقة للأشجار والبحر والهواء.

وكانت كلير تقول، وهي تأكل بلا انقطاع:

ـ هذه الصغيرة، هي إحدى قوى الطبيعة.

ثم كان الجميع يذهبون ليتدفّأوا بالشمس ويصمتوا. إنّ الإنسان يحطّ من قوّة الإنسان. في حين أنّ العالم يتركها بكرًا. ولقد كانت روز وكلير وكاترين وباتريس، عند نوافذ بيتهم، يعيشون في الصور وفي الظاهر، يرتضون هذا النوع من اللعب الذي يعقدونه في ما بينهم، يضحكون للصداقة كما يضحكون للحنوّ، ولكن عندما كانوا يمثلون من جديد أمام رقص السماء والبحر، كانوا يجدون اللون الخفي لمصيرهم، فيتلاقون أخيرًا بأعمق ما في ذواتهم. كانت القطط أحيانًا تأتي لتلتحق بأسيادها.. «غولا»

تتقدّم، مُهانة باستمرار، نقطة استفهام سوداء بعينين خضراوين، نحيفة وناعمة، مأخوذة فجأة بالجنون، متخبّطة ضدّ أشباح. وكانت روز تقول:

ـ «إنّها مسألة غدد صمّاء».

ثم كانت تضحك، فاتحة نفسها كلّها لضحكتها، بشعرها المجعّد، وعينيها المزمومتين المبتهجتين وراء نظّارات مستديرة، حتى تقفز عليها غولا (وهذه حظوة خاصّة). وحين تمرّ أصابعها التائهة على الوبر اللمّاع، تلين روز، وتسترخي. وإذ تصبح قطّة ذات عينين ناعمتين، تهدّئ الوحش بيدين لطيفتين أخويّتين. ذاك أنّ القطط كانت الباب الذي تخرج منه روز إلى العالم، كما كان العريّ باب كاترين. وكانت كلير تفضّل القطّ الآخر الذي هو «كالي». كان هادئًا ساذجًا كوبره الأبيض المتّسخ، يستسلم للتعذيب، وكانت كلير ذات الوجه الفلورنسي، تحسّ آنذاك بروحها رائعة. كانت صموتًا ومغلقة على ذاتها، تتخلّلها انفجارات مفاجئة، وكانت تملك شهيّة جيّدة. كان باتريس يراها تسمن فيوبّخها.

يقول:

ـ إنّكِ تبعثين فينا القرف: إنّ كائنًا جميلاً لا يحقّ له أن يقبح.

ولكن روز كانت تتدخّل:

ـ متى ستنتهي من معاكسة هذه الطفلة؟ كلي يا أختي كلير!

وكان اليوم يدور من الشروق حتى المغيب حول التلال وعلى البحر تحت الشمس اللطيفة. كانوا يضحكون، وينكّتون ويضعون المشاريع. كلّ منهم يبتسم للمظاهر ويتظاهر بأنّه يخضع لها. وكان

باتريس يتنقّل من وجه العالم إلى وجوه النساء الشابّات الرصينة الباسمة. أحيانًا يندهش من هذا الكون المنبعث حوله: ثقة وصداقة، شمس وبيوت بيضاء، ظلالٌ من الفروق لا تكاد تُسمع، هنا كانت تولد سعاداتٌ بكر كان يقيس صداها الدقيق. وكانوا يقولون فيما بينهم إنّ «البيت أمام العالم» ليس بيتًا يتسلّى فيه المرء ولكنّه بيت يكون فيه المرء سعيدًا. باتريس يحسّ ذلك جيّدًا، عندما تكون الوجوه متّجهة نحو المساء، فيفتحون نفوسهم جميعًا ليدخلها، مع آخر نسمة، الإغراء الإنساني الخطر في أن لا يشبه المرء شيئًا.

ذهبت كاترين، هذا اليوم بعد حمّام الشمس، إلى المكتب، فقالت روز وقد انبثقت فجأة:

ـ عزيزي باتريس، لديّ خبر سارّ أعلنه لك.

في الغرفة ـ السطيحة، كان الفتى متمدّدًا بشجاعة على أريكة، في هذا اليوم، وبين يديه رواية بوليسيّة. قال:

ـ يا عزيزتي روز. إنّني أصغي إليكِ.

ـ إنّ هذا اليوم هو دورك للطبخ.

قال باتريس من غير أن يتحرّك:

ـ حسنًا.

وذهبت روز، حاملة حقيبتها المدرسيّة، التي وضعت فيها بلا تمييز فليفلة الغداء، ومجلّد «التاريخ» الجزء الثالث، المضجر، لمؤلّفه لافيس.

أخذ باتريس، الذي كان عليه أن يطبخ فاصوليا، يتسكّع حتى

الساعة الحادية عشرة، فيتأمّل الغرفة الكبيرة بحيطانها الممغّرة، المفروشة بالأرائك والرفوف والأقنعة الخضراء والصفراء والحمراء، وبالطنافس الحريريّة ذات التخطيطات البرتقاليّة، ثم غلى العدس بمفرده، ووضع الزيت في القدر، وبصلة للتطرية وبندورة وإربيانًا محشوًّا، وانهمك وهو يلعن غولا وكالي اللذين كانا يحتجّان من فرط الجوع، بالرّغم من أنّ روز قد شرحت لهما البارحة قائلة:

ـ يجب أن تعلما، أيّها القطّان، أنّ الجوّ في الصيف هو أشدّ حرارة من أن يشعر فيه أحد بالجوع.

قبل الظهر بربع ساعة، وصلت كاترين، مرتدية فستانًا خفيفًا وصندلاً مكشوفًا. وكانت بحاجة إلى حمّام بارد وحمّام شمسي، ولهذا فستكون آخر من يجلس إلى المائدة، وستقول روز بقسوة:

ـ إنّكِ غير محتملة، كاترين.

الماء يصفر في الحمّام؛ وها هي كلير تقول لاهثة:

ـ هل تطبخ عدسًا؟ إنّ لديّ وصفة جيّدة جدًّا.

ـ إنّني أعرف. آخذ زبدة طازجة.. إنّك تكرّرين كلامك يا عزيزتي كلير.

والواقع أنّ جميع وصفات كلير تبدأ دائمًا بالزبدة الطازجة.

قالت روز القادمة لتوّها:

ـ إنّه على حقّ.

قال الفتى:

ـ نعم.. لنجلسْ إلى الطاولة.

أكلوا في مطبخ هو في الوقت نفسه مخزن للوازم. وكان فيه كلّ شيء حتى مفكّرة لتسجيل نكات روز. قالت كلير:

ـ لنكن لائقين، ولكن بسطاء.

وأكلت سجقها بأصابعها. ووصلت كاترين بتأخير ملائم، ثملة مكتئبة، شاحبة العينين من النعاس. ولم يكن في روحها ما يكفي من المرارة لتفكّر بمكتبها ـ ثماني ساعات تنتزعها من العالم ومن حياتها لتمنحها إلى آلة كاتبة. وصديقاتها يدركن ويفكّرن بما عساها ستكون حياتهنّ إذ تبترها هذه الساعات الثماني.. وكان باتريس صامتًا.

قالت روز، التي لا تحبّ مظاهر الحنان والعطف:

ـ إنّ هذا في الواقع يشغلكِ. ثم إنّكِ قبل كلّ شيء تحدّثيننا عن مكتبك كلّ يوم.. إنّنا نحرمك حقّ الكلام.

وتأوّهت كاترين قائلة:

ـ ولكن...

ـ بالتصويت، في هذه الحالة، واحد، اثنان، ثلاثة، الأغلبيّة ضدّك.

قالت كلير:

ـ إنّكِ ترين.

ووصل العدس، مفرط الجفاف. فأكلوا جميعًا بصمت. عندما تطبخ كلير، تتذوّق الطعام على الطاولة، ثم تضيف دائمًا بلهجة راضية:

ـ ولكن هذا ممتاز!

أمّا باتريس، الذي يحافظ على رصانته، فيفضّل السكوت حتى اللحظة التي ينفجر فيها الجميع بالضحك. وكاترين التي لم تكن ذلك اليوم موفّقة في خيالاتها، ولكنّها تريد الحصول على أسبوع عمل بأربعين ساعة، فقد طلبت منهم أن يرافقوها إلى «الاتّحاد العامّ للعمل».

قالت روز:

ـ لا، إنّك أنتِ التي تعملين، بعد كلّ حساب.

وذهبت «قوّة الطبيعة» لتستلقي في الشمس وهي ساخطة. ولكن ما لبث الجميع أن وافوها إلى هناك، واعتقدت كلير، وهي تداعب بإهمال شعر كاترين، إنّ ما ينقص «هذه الطفلة» هو في الحقيقة رجل. ذاك أنّ العادة المألوفة في «البيت أمام العالم» هو أن يقرّروا مصير كاترين، وأن ينسبوا إليها حاجات يحدّدون لها امتدادها وتنوّعها. صحيح أنّها كانت تلاحظ من وقت إلى آخر أنّها راشدة كفاية، ولكنّهم لا يستمعون إليها. وتقول روز:

ـ يا للمسكينة! إنّها بحاجة إلى عشيق.

وبعد ذلك يستسلم الجميع لحرارة الشمس، فتروي كاترين، التي لم تكن حقودة، حكاية من حكايات مكتبها وكيف أنّ الآنسة بيريز، الشقراء الطويلة، التي ستتزوّج عمّا قريب، تطوف على الدوائر لتتوثّق من الأوصاف المخيفة التي يسرّ المسافرين أن ينعتوها بها، وكيف صرّحت، وهي تبتسم عندما عادت من العطلة التي أخذتها بمناسبة الزواج: «لم يكن ذلك فظيعًا إلى هذا الحدّ». وتضيف كاترين في رثاء: «إنّها في الثلاثين».

قالت روز مستنكرة هذه القصص الخطيرة: «عجبًا، يا كاترين،

تنسين أنّ الموجودات هنا لسن فقط فتيات صبيّات».

في هذه الساعة، يمرّ البريد الجوّي فوق المدينة، وينزّه زهو معدنه اللامع على الأرض وفي السماء، ويدخل في حركة الجون، فينحني مثلها، ويندمج بسياق العالم، متخلّيًا هنا عن لعبه، وينعطف فجأة، ويغطس طويلاً في البحر ويحطُّ في انفجار كبير من الماء الأبيض والأزرق. وتمدّد غولا وكالي على جنبيهما، ومن خلال شدقيهما الصغيرين الشبيهين بفم الأفعى كان يتراءى سقف حلقهما الوردي، وكانت أحلام مترفة فاحشة تخترقهما وتحدث ارتعاشات في جنبيهما. وسقطت السماء من الأعالي بكلّ حملها من الشمس والألوان. أحسّت كاترين، وهي مغمضة العينين، بالسقوط الطويل العميق الذي يعيدها إلى أعماق ذاتها حيث يتحرّك بلطف هذا الحيوان الذي يتنعش.

في الأحد التالي، انتظروا ضيوفًا. وكان على كلير أن تطبخ. وقد قشّرت روز الخضَر، وهيّأت الصحون والطاولة. ثم وضعت كلير الخضَر في الأوعية وراقبت الطبخ وهي تقرأ في غرفتها. وبما أنّ «مينا لاموريسك» لم تأت ذلك الصباح لأنّها فقدت والدها للمرّة الثالثة في السنة، فقد قامت روز أيضًا بالتنظيف. ووصل المدعوّون، وعلى رأسهم إليان، التي يدعوها مرسو «المثاليّة»، فتسأله: «ولماذا؟» فيجيبها: «لأنّه حين يُقال لك شيء حقيقي يغيظك، تقولين: هذا صحيح، ولكنّه غير صالح».

وإليان ذات قلب طيّب، تجد نفسها شبيهة بـ «رجل القفّاز» وهو شَبَهٌ ينكره عليها الجميع. ولكن غرفتها الخاصّة مفروشة برسوم «رجل القفّاز». وإليان تدرس. وفي أوّل مرّة جاءت إلى «البيت أمام

العالم» صرّحت بأنّها مسحورة «بانعدام الأحكام المسبقة» عند ساكنيه. ومع الزمن، وجدت هذا أقلّ ملاءمة. فأن لا يكون لديك أحكام مسبقة، فذلك يتضمّن أن تقول لها إنّ القصّة التي روتها وأتقنتها بما أضفته عليها من عنايات إنّما هي قصّة مضجرة تمامًا، وأن تصرِّح بمحبّة عند أقلّ جملة: «إليان، لست سوى حمقاء».

عندما دخلت إليان المطبخ مع «نويل»، المدعو الثاني الذي يمتهن مهنة النحّات، وقعت على كاترين التي لم تكن تطبخ أبدًا بوضع طبيعي. كانت مستلقية على ظهرها تأكل عنبًا بيد وتحرّك المايونيز الذي ما يزال في أوّله بيدها الأخرى. أمّا روز، التي كانت ترتدي مريولاً أزرق كبيرًا، فكانت تتأمّل ذكاء غولا التي قفزت على الثريد لتأكل طعام الظهر.

قالت روز مغتبطة:

ـ لاحظي كم هي ذكيّة!

قالت كاترين:

ـ نعم، إنّها تتفوّق اليوم على ذاتها.

وأضافت أنّ غولا التي تزداد ذكاء قد كسرت هذا الصباح المصباح الصغير الأخضر وإناء للورود.

وقرّر إليان ونويل، اللذان كانا بلا شكّ مبهورين أكثر ممّا ينبغي ليعبّرا عن قرفهما، قرّرا أن يتّخذا لنفسيهما مقعدًا لم يفكّر أحد أن يقدّمه لهما. ووصلت كلير، لطيفة مسترخية، فصافحت الأيدي وتذوّقت حساء السمك على النار. وفكّرت أنّ بالإمكان الجلوس إلى المائدة. ولكن باتريس هذا اليوم كان متأخّرًا. إلّا أنّه ما لبث أن وصل، وبذلاقة لسان، شرح لإليان أنّه سعيد لأنّ النساء

كنّ جميلات في الشوارع.

كان الموسم الحارّ في مطلعه، ولكنّ الأثواب الزاهية التي ترتجف تحتها أجسام قاسية قد ظهرت. وبسبب ذلك أحسّ باتريس بفمه جافًّا، وصدغيه خافقين وأحشائه حارّة، وأمام هذه الدقّة في التعابير، لزمت إليان وعفّتها الصمت. وعلى المائدة، تلا الذعر أولى ملاعق حساء السمك. قالت كلير، المغناج، بأسلوب صاف جدًّا:

ـ أخشى أن يكون لهذا الحساء طعم بصل محروق.

قال نويل، الذي كان الجميع يحبّون قلبه الطيّب:

ـ ولكن لا.

وإذ ذاك رجته روز، لتمتحن هذا القلب الطيّب، أن يشتري للبيت عددًا من الأشياء النافعة كسخّان للحمّام وسجّاد عجمي وبرّاد. وأجاب نويل مشجّعًا روز على أن تصلّي له ليربح هو نفسه في اليانصيب.

قالت روز بواقعيّة:

ـ ما دام علينا أن نصلّي، فإنّنا نصلّي لأجلنا!

كان الجوّ حارًّا حرارة كثيفة تجعل الخمر المثلّج والفاكهة المجلوبة لتوّها أطيب مذاقًا. وعند تناول القهوة، تتحدّث إليان عن الحبّ بشجاعة كبيرة. فلئن أحبّت، ستتزوّج. قالت لها كاترين إنّ أكثر الأمور إلحاحًا عندما يحبّ المرء هو ممارسة الحبّ. وكان أن شنّجت هذه السياسة المادّيّة إليان. أمّا روز، البراغماتيّة، فإنّها كانت توافقها «لو لم تكن التجربة، مع الأسف، قد أثبتت أنّ الزواج يقتل الحبّ».

ولكن إليان وكاترين تفسّران أفكارهما في المعاكسة فتصبحان جائرتين كما يحصل عندما يكون المرء صاحب مزاج. أمّا نويل، الذي يفكّر بحسب الأصول والمألوف فيعتقد بالمرأة وبالأولاد وبالحقيقة الأبويّة في حياة حسّيّة وازنة. وإذ أُرهقت روز بصراخ إليان وكاترين، تصنّعت أنّها تفهم فجأة الغاية من زيارات نويل العديدة. قالت:

ـ إنّني أشكرك؛ ولن أستطيع أن أعبّر لك عن مبلغ تأثّري بهذا الاكتشاف. وسأتحدّث منذ الغد إلى والدي عن «مشروعنا» وتستطيع أن تحدّثه عن طلبك في غضون أيّام.

قال نويل الذي لم يفهم جيّدًا:

ـ ولكن...

قالت روز باندفاع كبير:

ـ أوه. إنّني أعلم. إنّني أفهمك من غير أن تكون بحاجة للكلام. إنّك من أولئك الذين يصمتون وهم يحتاجون إلى أن يُفهموا. والحقّ أنّني سعيدة لكونك أفصحت عن رأيك، لأنّ تكرار زياراتك قد بدأ يمسّ طهارة سمعتي.

وبدا نويل مسرورًا قلقًا بعض الشيء، فأعلن عن ابتهاجه برؤية رغباته وقد تُوّجت.

قال باتريس وهو يشعل لفافة:

ـ من غير أن تحسب أنّ عليك أن تسرع. فإنّ وضع روز يلقي عليك تبعةً في استعجال الأمور.

قال نويل:

ـ ماذا؟

قالت كلير:

ـ يا إلٰهي! إنّنا لسنا بعدُ إلّا في الشهر الثاني.

وأضافت روز بحنان واقتناع:

ـ ثم إنّك بلغت السنّ التي يكون فيها المرء سعيدًا بأن يتعرّف على ذاته في طفل رجل آخر.

وتجهّم نويل قليلاً، وقالت كلير بلهجتها الطفوليّة الطيّبة:

ـ إنّها مزحة! ينبغي أن تأخذها بروح النكتة، لننتقل إلى الصالون.

وفي اللحظة نفسها انتهى النقاش حول المبادئ. ومع ذلك فإنّ روز التي تقوم بتصرّفاتها الجيّدة في الخفاء تتحدّث بهدوء إلى إليان. وفي الغرفة الكبيرة، وقف باتريس عند النافذة.

واستقامت كلير مستندة إلى الطاولة واستلقت كاترين على الحصير. أمّا الآخرون فقد جلسوا في الديوان، وكان ضباب كثيف يرفّ على المدينة والمرفأ. ولكنّ السفن الجرّارة تستأنف عملها، وتحمل نداءاتها الرصينة إلى هنا، مع روائح القطران والسمك، عالم الهياكل الحمراء والسوداء والمرابط الصدئة والسلاسل اللزجة بالفطر، ذلك العالم الذي يستيقظ تحت. وككلّ يوم، كان هو النداء الرجولي الأخوي لحياة تحمل مذاق القوّة، فيحسّ الجميع هنا بإغرائها أو ندائها المباشر.

قالت إليان لروز بحزن:

ـ وأنتِ أيضًا، في الواقع، مثلي.

قالت روز:

ـ لا. إنّني أحاول فقط أن أكون سعيدة وإلى أقصى حدّ ممكن.

قال باتريس من غير أن يتلفّت:

ـ وليس الحبّ هو الوسيلة الوحيدة.

إنّه يكنّ شغفًا كبيرًا لإليان، ويخشى أن يكون قد آلمها اللحظة. ولكنّه يفهم روز في إرادتها أن تكون سعيدة.

قالت إليان:

ـ إنّه مثل أعلى رديء.

ـ لا أدري إن كان مثلاً أعلى رديئًا، ولكنّه مثل أعلى سليم. وهذا، أترين...

ولم يتابع باتريس. أغمضت روز عينيها قليلاً. وقفزت غولا إلى ركبتيها. وبمداعبات طويلة على عظام جمجمتها، مهّدت روز لهذا الزواج الخفيّ الذي سترى فيه القطّة المغمضة العينين نصف إغماضة وسترى المرأة الجامدة بالنظرة نفسها عالمًا متشابهًا، كلّ منهما يحلم بين نداءات السفن الطويلة. تركت روز يتصاعد إليها مواء غولا الملتفّة في تجويف جسدها. وكانت الحرارة تضغط على عينيها وتغرقها في صمت مسكون بخفقات دمها. إنّ الهررة تنام أيّامًا بكاملها وتتحابّ منذ بزوغ النجمة الأولى حتى الفجر. إنّ شهوتها تنهش ونومها ثقيل. وهي تعلم أيضًا أنّ للجسد روحًا ليس للروح فيه أيّ نصيب.

قالت روز وهي تفتح عينيها:

ـ أجل، أودّ أن أكون سعيدة، وإلى أقصى حدّ ممكن.

كان مرسو يفكّر بلوسيان رينال. عندما قال منذ فترة قليلة إنّ النساء كنّ جميلات في الشوارع، كان يودّ أن يقول خاصّة إنّ امرأة قد بدت له جميلة. وكان قد التقى بها عند أصدقاء. ولأسبوع خلا، خرجا معًا، وإذ لم يكن عندهما ما يفعلانه، فقد تنزّها على البولفار، بمحاذاة المرفأ، في صبيحة جميلة حارّة. لقد امتنعت عن الكلام وحين صاحبها إلى بيتها، اندهش مرسو وهو يشدّ على يدها طويلاً ويبتسم لها. كانت طويلة، ولم تكن تلبس قبّعة، وكانت منتعلة صندلاً مكشوفًا ومرتدية ثوبًا من الكتّان الأبيض. كانا قد مشيا على البولفار في وجه ريح خفيفة. وكانت تضع قدمها مبسوطة على البلاط الحارّ، وتستند إليها لترفع نفسها قليلاً. في وجه الريح، وفي هذه الحركة، كان ثوبها يلتصق بها ويرسم بطنها المسطّح المكوّر. وكانت تمثّل بشعرها الأشقر الملقى إلى خلف، وأنفها الصغير المستقيم، وانطلاق نهديها الرائع، كانت تمثّل وتؤكّد نوعًا من الاتّفاق السرّي كان يربطها بالأرض وينظّم العالم حول حركاتها. وفيما كانت حقيبتها تتأرجح بيدها اليمنى المزيّنة بسوار من الفضّة يطقطق على القفل، وعندما كانت ترفع يدها اليسرى فوق رأسها لتتّقي الشمس، وطرف رجلها اليمنى على الأرض ما تزال، ولكنّها على وشك أن تغادرها، عندها كان يخيّل لمرسو أنّها كانت تشدّ حركاتها إلى العالم.

وآنذاك أحسّ بالتوافق السرّي الذي كان يؤالف خطواته وخطوات لوسيان. كانا يمشيان معًا بتناسق من غير أن يبذل أيّ جهد لينسجم معها. صحيح أنّ هذا التوافق كان ميسّرًا بحذاء

لوسيان المسطّح. ولكن كان في دعساتهما شيء مشترك بينهما في الطول والمرونة. وفي آن واحد، لاحظ مرسو صمت لوسيان وهيئة وجهها المنقبضة. وفكّر بأنّها كانت على الأرجح ناقصة الذكاء، وسُرّ لذلك. هناك شيء إلهي في الجمال الخالي من الفكر، وكان مرسو يعرف، أفضل من أيّ كائن آخر، كيف يتأثّر بذلك. كلّ ذلك جعله يطيل تلمّسه لأصابع لوسيان، ويقابلها كثيرًا، ويتنزّه طويلاً معها بمسيرة صامتة مانحين وجهيهما المسمرّين للشمس أو للنجوم، سابحين معًا، مؤالفين حركاتهما وأقدامهما من غير أن يتبادلا إلّا حضور جسديهما. وقد تمّ ذلك كلّه حتى مساء أمس إذ وجد مرسو معجزة مألوفة ومثيرة على شفتي لوسيان. إنّ ما كان يثيره حتى الآن كان طريقتها في التعلّق بثيابه، واتّباعه متأبّطة ذراعه، وذلك الاستسلام وتلك الثقة اللذان كانا يمسّان الرجل فيه. وكذلك صمتها الذي كان يضعها برمّتها في حركتها الآنيّة ويكمل تشابهها مع القطط التي كانت تدين لها بالرزانة التي تسبغها على جميع أعمالها.

وأمس، بعد العشاء، كان قد تنزّه على المرفأ معها. وذات لحظة توقّفا على حاجز البولفار فالتصقت لوسيان بمرسو. وفي الليل أحسّ تحت أصابعه بالوجنتين المثلّجتين البارزتين، والشفتين الدافئتين دفئًا كان الأصبع يغوص فيه. وإذ ذاك أحسّ في نفسه ما يشبه صراخًا كبيرًا متجرّدًا ملتهبًا. وأمام الليل المثقل بالنجوم، والمدينة، كسماء مقلوبة مليئة بالأضواء البشريّة تحت النَفَس الساخن العميق الذي كان يصعد من المرفأ نحو وجهه، كان يراوده العطش لهذا النَبع الدافئ، وتعصف به إرادة لا تُكبح لكي يلتقط

على هاتين الشفتين النابضتين كلّ معنى هذا العالم اللاإنساني الغافي، كأنّه صمت مسجون في فمها. وانحنى فكان ذلك كما لو أنّه يضع شفتيه على عصفور. أنّت لوسيان. وكان يعضّ شفتيها طوال دقائق، وفمه لصق فمها، ويشرق هذا الدفء الذي يحمله كما لو أنّه كان يضمّ العالم بين ذراعيه. وكانت هي، أثناء ذلك، تتشبّث به، كأنّها غريقة، وتنبثق بدفعات من هذا الثقب الكبير العميق الذي كانت ملقاة فيه، وتبعد شفتيها اللتين كانت تجذبهما بعد ذلك، لتسقط في المياه المجمّدة السوداء التي كانت تحرقها كشعب من الآلهة.

... ولكن إليان كانت قد بدأت بالذهاب. كان عصر طويل من الصمت والتفكير ينتظر مرسو في غرفته. وعند العشاء كانوا جميعهم صامتين. ولكنّهم بتوافق موحّد انتقلوا جميعًا إلى السطيحة. إنّ النهارات تنتهي دائمًا بأن تلتحق بالنهارات. من الصباح على الجون، المتلألئ بالغيوم والشمس، حتى عذوبة المساء، على الجون. يبزغ النهار على البحر ويغيب خلف الروابي لأنّ السماء لا تكشف إلّا طريقًا واحدًا ينطلق من البحر حتى الروابي. إنّ العالم لا يقول أبدًا إلّا شيئًا واحدًا. فيغري ثم يسئم. ولكن يأتي دائمًا وقت ينتصر فيه بقوّة الترداد فيقبض ثمن مثابرته. وهكذا فإنّ أيّام «البيت أمام العالم» المنسوجة من القماش المترف للضحكات والحركات البسيطة تنتهي على السطيحة أمام السماء المليئة بالنجوم. كانوا يتمدّدون على مقاعد طويلة، وكانت كاترين جالسة على حائط السور.

في السماء، يلتمع وجه الليل المعتم ملتهبًا وسرّيًا، وتفرّ

أضواء بعيدة جدًّا في المرفأ ويتباعد زئير القطارات. وتكبر النجوم ثم تتقلّص وتختفي ثم تولد من جديد، موحّدة وجوهًا متقلّبة فيما بينها. وفي الصمت، يستردّ الليل كثافته ولحمه. ومثقلاً بانزلاقات نجومه، كان يترك في العيون ألاعيب الأضواء التي تضع فيها الدموع. وكان كلّ واحد، وهو يغوص في أعماق السماء، يلقى في هذه النقطة القصوى التي يلتقي فيها كلّ شيء، الفكرة الخفيّة الحنونة التي تشكّل كلّ وحدة حياته.

ولم تستطع كاترين، التي خنقها الحبّ فجأة، إلّا أن تتنهّد. ومع ذلك فقد سأل باتريس الذي أحسّ بصوتها متغيّرًا:

ـ ألا تشعرين بالبرد؟

قالت روز:

ـ لا. ثم إنّ ذلك جميل جدًّا.

ونهضت كلير، فوضعت يديها على الحائط ومدّت وجهها نحو السماء. وأمام كلّ ما في العالم من بدائي ورفيع، مزجت بين حياتها وبين شهوتها إلى الحياة، وخلطت أملها مع حركة النجوم. وحين تنبّهت فجأة، توجّهت قائلة لباتريس:

ـ في الأيّام الطيّبة، حين تمنح الحياة الثقة، فهذا يجبرها على أن تردّ بالمثل.

قال باتريس من غير أن ينظر إليها:

ـ نعم.

وانخطفت نجمة، وخلفها، انتشر ضوء منارة بعيدة في الليل الذي ازداد الآن حِلْكة. وتسلّق رجال الطريق صامتين. كانوا

يُسمعون وهم يراوحون ويتنفّسون بشدّة. وبعد قليل فاح عبير ورود.

إنّ العالم لا يقول أبدًا إلّا شيئًا واحدًا. وفي هذه الحقيقة الصابرة التي تنتقل من نجمة إلى نجمة، تترسّخ حرّيّة تُحلّنا من ذواتنا ومن الآخرين، شبيهة بتلك الحقيقة الصابرة الأخرى التي تنتقل من الموت إلى الموت. آنذاك كان باتريس وكاترين وروز وكلير يعون السعادة التي تولد من استسلامهم للعالم.

ولئن كان هذا الليل كوجه مصيرهم، فإنّهم معجبون بأن يكون حسّيًا وسرّيًا في وقت واحد، وأن تختلط على وجهه الدموع والشمس. ويعرف قلبهم المليء بالألم والفرح أن يستمع إلى هذا الدرس المزدوج الذي يقود نحو الموت السعيد.

الوقت متأخّر الآن، فقد بدأ منتصف الليل. وعلى جبين هذا الليل الذي يشبه راحة العالم وفكره، كان تضخّمٌ أصمّ وجلبةُ نجوم ينبئان باليقظة القادمة. ومن السماء، المفعمة بالكواكب، ينحدر نور راجف. وينظر باتريس إلى صديقاته: كاترين مقرفصة على الحائط، رأسها مقلوب إلى الوراء؛ وروز، قابعة في الكرسي الطويل، يداها مبسوطتان على غولا؛ وكلير واقفة متصلّبة إزاء الحائط تعلو لطخة بيضاء جبينها المقبّب. كائنات شابّة، قابلة للسعادة يتبادلون شبابهم ويحتفظون بأسرارهم.. اقترب باتريس من كاترين، ونظر من فوق كتفها المصنوعة من اللحم والشمس في كرويّتها السماويّة. واقتربت روز من الحائط فأصبحوا هم الأربعة أمام «العالم». كان ذلك كما لو أنّ الندى الليلي الذي غدا فجأة أكثر نضارة كان يغسل عن جباههم أمارات وحدتهم ويحرّرهم من ذواتهم، وبهذا التعميد الراجف الخاطف كان يعيدهم إلى العالم. وفي تلك الساعة التي

يفيض فيها الليل بالنجوم، تتسمّر حركاتهم على وجه السماء الكبير الأصمّ.

رفع باتريس ذراعه نحو الليل وجرف في انطلاقته باقاتٍ من النجوم، وماء السماء الذي خفقته ذراعه ومدينة الجزائر تحت قدميه، وحولهم ما يشبه معطفًا قاتمًا متلألئًا بالجواهر والأصداف.

الفصل الرابع

في الصباح الباكر، كانت سيّارة مرسو تجري على طريق الساحل بمصابيحها المنخفضيْ الضوء. وحين خرج من مدينة الجزائر، كان قد أدرك وتجاوز عربات بائعي اللبن، وكانت رائحة الخيول الممزوجة من العرق الحارّ والزريبة، قد جعلته أكثر تذوّقًا لنضارة الصباح. كان الوقت ما يزال ليلاً. وكانت نجمة أخيرة تذوب ببطء في السماء، وعلى الطريق الملتمع في الظلمة، كان يلحظ فقط صوت وحش المحرّك السعيد، وأحيانًا على بعد طفيف، خبب حصان وضجيج عربة مليئة بالصفائح، إلى أن استطاع أن يدرك، على الخلفيّة السوداء للطريق، بريق الحديد اللمّاع المربّع على أقدام الحصان. ثم كان كلّ شيء يضمحلّ في ضجيج السرعة. وكان الآن يسبح بسرعة أكبر، والليل يميل بسرعة نحو النهار.

في أعماق الليل المتراكم بين روابي مدينة الجزائر، كانت السيّارة تخرج على طريق سالكة تشرف على البحر حيث كان الصباح يكتمل. وأطلق مرسو لسيّارته العنان. كانت العجلات تضاعف على الطريق الرطب بالندى أصواتها الصغيرة الشبيهة

بأصوات محجم. وعند كلّ منعطف، كانت ضربة مكبح تجعل العجلات تزأر على نحو حادّ، وفي الخطّ المستقيم كان خرير الإقلاع الجديد يطغى لحظة على أصوات البحر الصغيرة التي تصعد من الشواطئ، على مستوى أدنى. إنّ الطائرة وحدها تتيح وحدة يتحسّسها الإنسان أكثر ممّا يتحسّس الوحدة التي يكتشفها في السيّارة. وقد كان مرسو، وهو حاضر أمام نفسه حضورًا تامًّا، راضيًا رضى واعيًا عن دقّة حركاته، يستطيع في الوقت نفسه أن يعود إلى ذاته وإلى ما كان يشغله. كان النهار الآن مشرّعًاعند طرف الطريق. والشمس ترتفع فوق البحر ومعها كانت الحقول ذات الحواشي، المقفرة، للحظة خلت، تستيقظ مليئة بالعصافير والحشرات ذات الطيران الأحمر. أحيانًا كان فلّاح يجتاز أحدها فلا يحفظ مرسو، وهو مدفوع بالسرعة، إلّا صورة طيف يحمل كيسًا، ويطأ بكلّ ثقل خطواته على الأرض الدهنيّة التارّة. وكانت السيّارة تعيده بانتظام إلى المنحدرات التي تسيطر على البحر. وكانت هذه المنحدرات تتضخّم، وطيفها، الذي لم يكن منذ لحظات يتميّز إلّا كظلّ صيني تجاه النهار، يقترب بسرعة ويتضخّم بدقائقه ويقدّم لمرسو جنباته المكشوفة فجأة، مليئة بشجرات الزيتون والصنوبر والبيوت الصغيرة المطيّنة. ثم كان ينتفخ بالمدّ ويصعد نحو مرسو، كقربان مليء بالملح والحمرة والنعاس، وكانت السيّارة آنذاك تزمّر على الطريق وتتّجه من جديد نحو منحدرات أخرى ونحو البحر ذاته.

لشهر خلا، كان مرسو قد أعلن رحيله عن «البيت أمام العالم». كان يريد أن يسافر أوّلاً ثم يستقرّ في ضواحي مدينة

الجزائر. وبعد بضعة أسابيع عاد، متأكّدًا من أنّ السفر أصبح يمثّل له بعد الآن حياة غريبة: كان الاغتراب يبدو له فقط سعادة إنسان قلق، كما أنّه كان يحسّ في ذاته تعبًا غامضًا. كان متعجّلاً ليحقّق المشروع الذي سبق أن وضعه لشراء بيت صغير بين البحر والجبل، في الشنوة، على بعد بضعة كيلومترات من خرائب تيبازا. ولدى وصوله إلى مدينة الجزائر، صمّم الديكور الخارجي لحياته، فاشترى كمّيّة هامّة من المستحضرات الصيدليّة الألمانيّة وعيّن موظّفًا يدفع له للإشراف على العمل، مبرّرًا بهذه الطريقة غيابه عن مدينة الجزائر والحياة المستقلّة التي يحياها. وكان العمل يسير في ما تبقّى بطريقة ما، وكان يتكفّل بالعجز الاتّفاقي، مضيفًا بلا تأنيب ضمير، هذه الضريبة إلى حرّيّته العميقة. حسبه بالفعل أن يقدّم للعالم وجهًا يستطيع أن يفهمه، ويضطلع الكسل والجبن بالباقي. إنّ الاستقلال يُكتسب ببعض كلمات رخيصة من كلام الاعتراف. ثم اهتمّ مرسو فيما بعد بمصير لوسيان.

لم يكن لها أهل، وكانت تعيش وحدها، وتعمل سكرتيرة في متجر للفحم، وتقتات بالفاكهة وتقوم بالرياضة البدنيّة. وقد أعارها مرسو كتبًا فأعادتها إليه من غير أن تقول شيئًا. وكانت تجيب على أسئلته بقولها: «نعم نعم. إنّها جيّدة». أو: «هذا حزين بعض الشيء». وفي اليوم الذي قرّر فيه أن يغادر مدينة الجزائر، عرض عليها أن تعيش معه، على أن تقيم في مدينة الجزائر من غير أن تعمل، وأن توافيه عندما يكون بحاجة إليها. قال ذلك باقتناع كاف لكي لا ترى لوسيان في الأمر أيّ شيء مُذلّ، والحقّ أنّه لم يكن فيه أيّ شيء مذلّ. وغالبًا ما لحظت لوسيان بجسدها ما كان فكرها

يعجز عن فهمه، فقبلت. وأضاف مرسو:

ـ إذا كنت حريصة على أن تتزوّجي، فباستطاعتي أن أعدك بالزواج منك. ولكن ذلك لا يبدو لي مفيدًا.

قالت لوسيان:

ـ كما تشاء.

بعد أسبوع، تزوّجها وتهيّئا للذهاب. وفي أثناء ذلك اشترت لوسيان لنفسها قاربًا برتقالي اللون لتذهب إلى البحر الأزرق.

وتجنّب مرسو، بضربة مقود، دجاجة صباحيّة. كان يتذكّر حديثًا سبق أن أجراه مع كاترين. وكان قد غادر «البيت أمام العالم» عشيّة يوم السفر ليمضي ليلة وحيدًا في الفندق.

كان ذلك في أوّل العصر، ولمّا كانت الدنيا قد أمطرت في الصباح، فإنّ الجون كان بأكمله كزجاج مغسول، والسماء كغسيل رطب. وبالمواجهة تمامًا، كان الرأس الذي ينهي دائرة الجون يرتسم بنقاء عجيب، ويتمدّد مذهّبًا بشعاع الشمس، أشبه بحيّة صيف كبيرة. وكان باتريس قد انتهى من استعداده للسفر، وكان الآن، وذراعاه على قائمة واجهة النافذة، ينظر بنهم إلى هذه الولادة الجديدة للعالم.

ـ لا أفهم لماذا تذهب، إن كنت سعيدًا هنا.

هذا ما كانت كاترين قد قالته له.

ـ إنّني أخشى أن أحبَّ هنا، يا صغيرتي كاترين، وهذا سيمنعني من أن أكون سعيدًا.

كانت كاترين ملتفّة على نفسها فوق الأريكة، منخفضة الرأس

بعض الشيء، تلحظ باتريس بنظرها الجميل الخالي من العمق. قال من غير أن يلتفت:

ـ كثير من الرجال يعقّدون وجودهم ويخترعون لأنفسهم مصائر. أمّا أنا، فالأمر عندي بسيط، انظري.

كان يتكلّم بمواجهة العالم، وكاترين تحسّ نفسها منسيّة. كانت تنظر إلى أصابع باتريس الطويلة والمتدلّية عند طرف ساعده المطوي على قائمة النافذة، وإلى طريقته في إسناد جسده على جانب واحد، وإلى نظره التائه الذي كانت تحزره من دون أن تلحظه.

قالت:

ـ ما أودّه... ولكنّها سكتت، ونظرت إلى باتريس.

كانت أشرعة صغيرة قد بدأت في عبور البحر منتهزة فرصة الهدوء. تبلغ المضيق فتملأه بخفقات الأجنحة ثم، فجأة، تحوّل جريها نحو عرض البحر، يرافقها مخر من الهواء والماء الذي يتفتّح بارتعاشات طويلة مزبدة. ومن مكانها، وبقدر ما كانت تقترب الأشرعة من البحر، كانت كاترين تراها ترتفع حول باتريس كرفيف طيور بيضاء. وبدا أنّه يحسّ صمتها ونظرها، فالتفت، وأمسك بيديها وضمّها إليه.

ـ لا تتراجعي، أبدًا، يا كاترين. إنّك تملكين الكثير من الأشياء في نفسك، وأنبلها جميعًا حسّ السعادة: لا تنتظري الحياة فقط من رجل. بسبب ذلك تخطئ الكثيرات من النساء. ولكن انتظريها من ذاتك.

قالت كاترين بهدوء وهي تأخذ كتف باتريس:

ـ إنّني لا أشتكي، يا مرسو. هناك شيء واحد مهمّ الآن. اعتنِ بنفسك.

وأحسّ إذ ذاك كم كان يقينها يستند على قليل من الأشياء، وكان قلبه جافًا بطريقة غريبة.

ـ كان عليكِ أن لا تقولي ذلك الآن.

تناول حقيبته وهبط في بادئ الأمر السلّم الواقف ثم سلك الطريق المبتدئ من شجرات الزيتون حتى شجرات الزيتون. ولم يكن ما ينتظره بعد سوى الشنوة، غابة في الخرائب والأبسنت، وحبّ بلا أمل ولا يأس ترافقه ذكرى حياة من الخلّ والورود. والتفت. فوق، كانت كاترين تنظر إليه يرحل، بلا حراك.

وبعد أقلّ من ساعتين بقليل وصل مرسو مقابل شنوة. في هذه اللحظة كانت أضواء الليل البنفسجيّة الأخيرة ما تزال تنسحب على منحدراتها التي تغطس في البحر بينما القمّة تشعّ بالأضواء الحمراء والصفراء. كان هناك ما يشبه اندفاعًا قويًا وكثيفًا للأرض ينطلق من منحدرات «السهل» التي كانت ترتسم جانبًا عند الأفق، لتنتهي عند هذا الظهر الضخم للحيوان العاضل الذي يغطس في البحر بقامته كلّها.

كان البيت الذي اشتراه مرسو يرتفع عند آخر المنحدرات على ارتفاع نحو مئة متر عن البحر الذي كانت قد ذهّبته الحرارة. لم يكن يتكوّن إلّا من طابق واحد فوق الطابق الأرضي، وفي هذا الطابق لم يكن ثمّة سوى غرفة واحدة مع توابعها. ولكن هذه الغرفة كانت واسعة، تنفتح على الحديقة الأماميّة، ثم على البحر بجون رائع مطوّل بسطيحة وقد صعد مرسو إليه بسرعة. كان البحر قد بدأ

يرسل بخاره، وفي آن واحد أخذت زرقته تزداد دكنة، بينما كانت حمرة بلاطات السطيحة الحارّة تكتسب إشراقته ولمعانه. وكان الدرابزون المملّط يتيح لأولى أزهار شجرة ورد رائعة معرّشة أن تتسلّل خلاله. كانت الورود بيضاء، أمّا التي كانت مفتّحة، متفرّقة على البحر، فقد كان في صلابة لحمها ما هو مُشبع وخصب. ومن غرف الطابق الأسفل، كانت تطلّ إحداها على أوّل منحدرات الشنوة، المملوءة بالأشجار المثمرة، بينما تطلّ الغرفتان الأخريان على الحديقة، وعلى البحر. وفي الحديقة، كانت شجرتا صنوبر تقذفان في السماء جذعيهما اللامتناسقين اللذين تغطّي طرفيهما فقط فروة مصفرّة وخضراء. ومن البيت لم يكن المرء يستطيع أن يرى إلّا الفضاء المسجون بين هاتين الشجرتين وانحناءة البحر بين الجذعين. في هذه اللحظة على الأقلّ، كان بخار خفيف يمرّ في عرض البحر، وقد نظر مرسو إليه أثناء الرحلة الطويلة التي قطعها من صنوبرة إلى أخرى.

هنا كان سيعيش. وكان جمال هذه الأماكن يؤثّر بلا شكّ على قلبه. لأجلها أيضًا كان قد اشترى هذا البيت. ولكنّ الراحة التي أمل أن يجدها هنا كانت تخيفه الآن. وهذه الوحدة التي كان قد بحث عنها بهذا القدر من الوضوح تبدو له أشدّ إقلاقًا، لا سيّما وأنّه يبدو الآن يعرف إطارها. لم تكن القرية بعيدة بل على بُعد بضع مئات من الأمتار. وخرج. كان درب صغير يهبط من الطريق نحو البحر. وإذ دلف إليه، لاحظ لأوّل مرّة أنّه بالإمكان رؤية رأس «تبازا» الصغير، من الناحية الأخرى للبحر. على طرف هذا الرأس، كانت أعمدة المعبد المذهّبة تتقاطع، ومن حولها الخرائب

المندثرة بين أشجار الأبسنت التي تشكّل، على مسافة ما، فروة رماديّة وصوفيّة. وفكّر مرسو بأنّ الريح، في أمسيات حزيران، لا بدّ من أن تحمل إلى شنوة، عبر البحر، العطر الذي كانت تفيض به أشجار الأبسنت المفعمة بالشمس.

كان عليه أن يجهّز مسكنه وينسّقه. وقد مضت الأيّام الأولى بسرعة: طلى الجدران بالكلس، واشترى بسطًا من مدينة الجزائر، وأعاد التمديد الكهربائي. وفي هذا العمل المتقطّع في النهار بالوجبات التي كان يتناولها في مطعم الضيعة وبحمّامات البحر، كان ينسى لماذا أتى إلى هنا، وكان يتوزّع في تعب جسده، مجوّف الكليتين، متصلّب الساقين، مهمومًا من نقص الدهان أو من التركيب الفاسد لمفصّلة في الممرّ. كان ينام في الفندق ويتعرّف شيئًا فشيئًا على الضيعة: الصبيان الذين كانوا يأتون بعد ظهر الأحد ليلعبوا بالبليار الروسي والبنغ ـ بونغ. (كانوا يحتلّون الألعاب بعد الظهر كلّه، ولم يكونوا يتناولون إلّا طلبًا واحدًا، ممّا كان يثير غيظ صاحب الدكّان)؛ والبنات اللواتي كنّ يتنزّهن مساء على الطريق المشرفة على البحر (كنّ يتماسكن بالأذرع وكانت أصواتهنّ تغنّي قليلاً على المقاطع الأخيرة للكلمات)؛ و«بيريز» الصيّاد الذي يزوّد الفندق بالسمك ولم تكن له إلّا ذراع واحدة، وهناك أيضًا التقى بطبيب القرية، برنار. ولكن في اليوم الذي تمّ فيه ترتيب كلّ شيء، نقل مرسو إلى المنزل حوائجه، ورجع بعض الشيء إلى نفسه. كان ذلك في المساء. وفي غرفة الطابق الأوّل، وخلف النافذة كان ثمّة عالمان يتنازعان الفضاء بين الصنوبرتين. أحدهما المائل إلى الشفافيّة كانت تتكاثر فيه النجوم. وفي الآخر، الأكثر كثافة

وسوادًا، كان خفقان ماء خفيّة يبشّر بالبحر.

حتى ذلك الحين كان قد عاش في حالة الاستبداع، ملتقيًا بالعمّال الذين ساعدوه أو مثرثرًا مع صاحب المقهى. ولكن في ذلك المساء وعى أنّه لم يكن ثمّة أحد يلقاه، لا غدًا ولا أبدًا، وأنه كان وجهًا لوجه مع الوحدة التي طالما تمنّاها. ومنذ اللحظة التي كان عليه أن لا يلقى فيها أحدًا، بدا له اليوم التالي قريبًا بشكل مريع. بيد أنّه أقنع نفسه بأنّ هذا هو ما سبق له أن أراده: هو أمام نفسه ولوقت طويل وحتى النهاية. وصمّم على أن يظلّ يدخّن ويفكّر حتى ساعة متأخّرة من الليل. ولكنّه حوالى الساعة العاشرة أخذه النعاس فنام. في اليوم التالي استيقظ متأخّرًا جدًّا، عند العاشرة تقريبًا، هيّأ فطوره وتناوله قبل أن يأخذ زينته. كان يحسّ نفسه تعبًا بعض الشيء. ولم يكن قد حلق ذقنه وكان شعره مبعثرًا. ومع ذلك، فإنّه، بعد أن أكل، وبدلاً من أن يدلف إلى الحمّام، تاه من غرفة إلى أخرى، مقلّبًا أوراق مجلّة، وأحسّ أخيرًا أنّه سعيد إذ وجد عاكسًا للتيّار الكهربائي متدلّيًا من الحائط فباشر العمل. طُرق الباب. وكان هو صبي الفندق الصغير الذي يحضر له غداءه كما سبق أن اتّفق معه البارحة. وكما كان، وبكسل، جلس إلى الطاولة، وأكل من غير شهيّة قبل أن تبرد الصحون، ثم أخذ يدخّن، متمدّدًا على أريكة غرفة الطابق الأسفل. عندما استيقظ، غاضبًا لكونه قد نام، كانت الساعة الرابعة. وإذ ذاك هندم نفسه، وحلق بعناية، ثم ارتدى ثيابه وكتب رسالتين، إحداهما للوسيان والأخرى للتلميذات الثلاث. كان الوقت إذ ذاك متأخّرًا جدًّا، وكان الليل يهبط، ومع ذلك، فقد ذهب حتى القرية ليلقي رسائله

في البريد، وعاد من غير أن يلتقي أحدًا. صعد إلى غرفته، ثم خرج إلى السطيحة. كان الليل والبحر يتحاوران على الساحل الرملي وفي الخرائب.

وكان هو يفكّر. وكانت ذكرى هذا اليوم الضائع تسمّمه. وذلك المساء، على الأقلّ، كان يريد أن يشتغل، أن يعمل شيئًا ما، أن يقرأ أو يخرج ليمشي في الليل. صرّ حاجز الحديقة المشبك: هذا عشاؤه يصل. كان جائعًا فأكل بشهيّة، وأحسّ نفسه عاجزًا عن الخروج. قرّر أن يقرأ طويلاً في السرير. ولكن عينيه أغلقتا عند الصفحات الأولى، وفي اليوم التالي استيقظ متأخّرًا.

في الأيّام التالية، حاول مرسو أن يقاوم هذا الاجتياح. وبقدر ما كانت الأيّام تمرّ، مليئة كلّها بصرير الحاجز المشبك واللفائف التي لا تُعدّ، كان القلق يأخذ به وهو يقدّر التفاوت بين الحركة التي كانت قد قادته إلى هذه الحياة وهذه الحياة نفسها. وذات مساء، كتب للوسيان يدعوها قاطعًا بهذه الطريقة الوحدة التي طالما انتظرها. عندما أرسل الرسالة، كان خجلٌ خفي قد افترسه، ولكن عندما وصلت لوسيان، ذاب هذا الخجل في نوع من الفرح الأبله المتعجّل اجتاحه وهو يرى كائنًا مألوفًا، ويرى الحياة المريحة التي كان حضوره ينطوي عليها. وأخذ يهتمّ بها، ويُبدي حفاوة كبيرة، وكانت لوسيان تنظر إليه بشيء من الدهشة، ولكنّها كانت دائمًا منهمكة بفساتينها من الكتّان الأبيض المكويّة جيّدًا.

وبعدها خرج إلى القرية، ولكن مع لوسيان. واستردّ تواطؤه مع العالم، ولكن وهو يضع يده على كتف لوسيان. وحين لاذ بالإنسان فيه، كان يهرب من خوفه الخفيّ. ومع ذلك، فبعد يومين

كانت لوسيان تضجره. وقد اختارت هي هذه اللحظة بالذات لتطلب إليه أن تعيش بالقرب منه. كانا يتناولان العشاء، وكان مرسو قد رفض بوضوح من غير أن يرفع عينيه عن صحنه.

وبعد لحظة صمت، كانت لوسيان قد أضافت بصوت محايد:

ـ أنت لا تحبّني.

فرفع مرسو رأسه. كانت عيناها مليئتين بالدموع. ورقّ لها:

ـ ولكنّني لم أقل لك ذلك أبدًا، يا صغيرتي.

قالت لوسيان:

ـ هذا صحيح، وهذا هو السبب.

نهض مرسو، فسار نحو النافذة. بين شجرتي الصنوبر، كانت النجوم تتكاثر في الليل. ربّما لم يسبق لباتريس قطّ أن أحسّ في قلبه، وفي آن واحد، بقلقه وبمثل هذا التقزّز من الأيّام التي انقضت. وقال:

ـ أنت جميلة يا لوسيان. إنّني لا أرى أبعد من ذلك. ولا أطلب منك أكثر من هذا. إنّ ذلك يكفينا نحن الاثنين.

قالت لوسيان:

ـ أعرف ذلك.

وكانت توليه ظهرها، تحكّ الخوان، بحدّ سكّينها.. أقبل عليها وأمسكها من رقبتها:

ـ صدّقيني، ليس هناك ألم كبير. ولا ندامات كبيرة ولا ذكريات كبيرة. كلّ شيء يُنسى، حتى الحبّ الكبير. هنا يكمن كلّ ما في الحياة من حزين ومثير في وقت معًا. هناك فقط طريقة ما في

النظر إلى الأشياء، وهي تنبعث من وقت إلى آخر. من أجل ذلك يُستحسن، بالرّغم من كلّ شيء، أن يكون المرء قد عرف حبًّا كبيرًا، أو عاطفة شقيّة في حياته. هذا يخلق على الأقلّ ذريعة لليأس الذي لا مبرّر له والذي نحن تحته رازحون.

وبعد فترة، فكّر مرسو وأضاف:

ـ لا أدري إن كنتِ تفهمينني.

قالت لوسيان:

ـ أعتقد أنّني أفهم.

وأدارت فجأة رأسها نحوه:

ـ أنت لست سعيدًا.

قال مرسو بعنف:

ـ سأكون سعيدًا. يجب أن أكونه. بفضل هذا الليل وهذا البحر وهذه الرقبة تحت أصابعي.

وكان قد اتّجه نحو النافذة، وشدّ يده على رقبة لوسيان. كانت تلتزم الصمت، ثم قالت من غير أن تنظر إليه:

ـ إنّك على الأقلّ، تكنّ لي بعض الصداقة؟

ركع مرسو أمامها وهو يعضّ كتفها:

ـ صداقة، نعم، كما أكنّ صداقة لليل. إنّكِ فرحة عينيّ، وأنتِ لا تعلمين أيّ مكان يمكن أن تحتلّه هذه الفرحة في قلبي.

وذهبت في اليوم التالي. وفي اليوم الذي تلاه، كان مرسو، وقد عجز عن أن يأتلف مع نفسه، يصل إلى مدينة الجزائر بالسيّارة. ذهب أوّلاً إلى «البيت أمام العالم». ووعدته صديقاته بأن

يذهبن لرؤيته في أواخر الشهر نفسه. وأراد إذ ذاك أن يعود إلى حيّه.

كان بيته قد أُجّر لصاحب مقهى. واستخبر عن البراميلي فلم يستطع أحد إفادته. كانوا يعتقدون أنّه ربّما كان قد ذهب إلى باريس بحثًا عن عمل. وتنزّه مرسو. وفي المطعم، كان سيليست قد شاخ ـ قليلاً. وكان رينه ما يزال هناك، مع سلّه وهيئته الرزينة. وقد سعدوا جميعًا بأن يروا مرسو من جديد، وكان هو متأثّرًا بهذا اللقاء.

قال له سيليست:

ـ أوه، يا مرسو، أنت لم تتغيّر!

قال مرسو:

ـ نعم.

كان يعجبه هذا الإصرار العجيب على أن يفرض الناس على أصدقائهم، بالرّغم من كونهم مطّلعين اطّلاعًا كبيرًا على ما يتغيّر في ذواتهم، الصورة التي كوّنوها عنهم مرّة وإلى الأبد!

وبالنسبة له، فقد كانوا يحكمون عليه وفقًا لما سبق أن كانه. وككلب لا يغيّر من طباعه، كذلك فإنّ الناس هم كلاب في نظر الإنسان. وبالقدر نفسه الذي كان فيه سيليست ورينه والآخرون قد عرفوه، فقد كان يصبح بالنسبة لهم غريبًا ومنغلقًا ككوكب غير مأهول. ومع ذلك، فقد تركهم بصداقة. وبينما هو خارج من المطعم، التقى بمارت. وإذ رآها، وعى أنّه كان قد نسيها تقريبًا، وأنّه كان في الوقت نفسه يأمل أن يلقاها. لقد كان لها دائمًا وجه الإلٰهة المرسومة. وقد اشتهاها خفية ولكن من غير اقتناع. وسارا معًا.

قالت له:

ـ أوه، يا باتريس، كم أنا مسرورة. ماذا أصبحت؟

ـ لا شيء. كما ترين. إنّني أسكن القرية.

ـ هذا رائع! لقد حلمت أنا دائمًا بذلك.

وبعد صمت، قالت:

ـ أتعلم؟ إنّني غير حاقدة عليك.

قال مرسو وهو يضحك:

ـ نعم. لقد تعزّيت.

وإذ ذاك اتّخذت مارت لهجة لم يكن يعهدها فيها قطّ:

ـ لا تكن خبيثًا، أتريد ذلك؟ كنت أعرف جيّدًا أنّ هذا سينتهي هكذا يومًا ما، لقد كنت شخصًا عجيبًا، وأنا لم أكن سوى فتاة صغيرة كما كنت تقول. وعندما حصل الأمر غضبت طبعًا. أنت تفهم. ولكنّني انتهيت إلى أن أقول لنفسي إنّك كنت تعيسًا. وهذا غريب. إنّني لا أعرف جيّدًا أن أعبّر عن هذا، ولكن هذه هي المرّة الأولى التي أدرك فيها أنّ ما كان حدث بيننا قد جعلني حزينة وسعيدة في آن واحد.

نظر إليها مرسو، مندهشًا. كان يفكّر فجأة بأنّ مارت كانت دائمًا على علاقة طيّبة جدًّا معه. وقد تقبّلته على علّاته، وانتزعته من كثير من الوحدة. ولقد كان غير منصف. ففي الوقت نفسه الذي كان فيه خياله وزهوه قد منحاها من القيمة أكثر ممّا ينبغي، فإنّ غروره لم يمنحها من هذه القيمة ما فيه الكفاية. كان يحسّ بأيّة مفارقة قاسية نُخدع دائمًا مرّتين بالأشخاص الذين نحبّهم،

لصالحهم أوّلاً ولغير صالحهم فيما بعد. وهو يدرك اليوم أنّ مارت كانت طبيعيّة معه ـ وأنّها قد كانت ما كانته، وبهذه الصفة كان مدينًا لها بالكثير. كانت السماء تمطر رذاذًا ما يكفي بالضبط لمضاعفة أضواء الشارع وتبديدها. وعبر نقط الأنوار والمطر، كان يرى وجه مارت الجادّ فجأة فيحسّ نفسه مأخوذًا بعرفان مضطرم لم يكن يتوصّل للتعبير عن نفسه، عرفان كان بإمكانه، في أوقات أخرى، أن يعتبره نوعًا من الحبّ. ولكنّه لم يعرف أن يجد إلّا كلمات فقيرة، فقد قال لها:

ـ أنتِ تعلمين، أنّني أحبّك كثيرًا! والآن أيضًا، لو كنت أستطيع شيئًا..

ابتسمت له، وقالت:

ـ لا. إنّني شابّة: وإذن فإنّني لا أحرم نفسي.

وأومأ موافقًا. منه إليها، أيّ بُعدٍ كان بينهما وأيّ تفاهم خفيّ، في آن واحد.. وتركها أمام بيتها. وكانت قد فتحت مظلّتها. قالت:

ـ آمل أن نلتقي.

قال مرسو:

ـ نعم.

وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة. قال مرسو:

ـ أوه. إنّ لكِ الآن وجه الفتاة الصغيرة.

كانت قد انسحبت بعيدًا عن الباب وأغلقت مظلّتها. مدّ لها باتريس يده وابتسم بدوره:

ـ إلى اللقاء، يا تجلٌ.

شدّت على يده بسرعة، وفجأة قبّلته من وجنتيه، وصعدت السلّم وهي تركض. ظلّ مرسو تحت المطر، وكان ما يزال يحسّ على وجنتيه أنف مارت البارد وشفتيها الحارّتين.

وتلك القبلة الفجائيّة المتجرّدة، كان لها النقاء كلّه الذي كان لقبلة بغي ڤينا الصغيرة ذات النمش.

ومع ذلك، فقد ذهب لملاقاة لوسيان، ونام عندها. وفي اليوم التالي طلب منها أن يسيرا على البولڤار. كانت الساعة تقارب الظهر عندما هبطا. وكانت أصداف ورديّة تجفّ في الشمس كثمار مقسّمة إلى حصص. هبط طيران مزدوج للحمام ولظلال الحمام نحو المرافئ ليصعد في الحال بانحناءة بطيئة. وكانت الشمس المتألّقة تدفئ بعذوبة. كان مرسو ينظر إلى ناقل البريد الأحمر والأسود يخرج على مهل من المضيق البحري فيزيد من سرعته ثم ينعطف نحو حاجز النور الذي كان يزيد عند التقاء السماء والبحر. إنّ في كلّ رحيل، بالنسبة للإنسان الذي يشاهد رحيلاً، عذوبة مرّة. قالت لوسيان:

ـ إنّهم محظوظون.

فقال باتريس «نعم» وكان يفكّر «لا»، أو أنّه على الأقلّ لا يحسدهم على هذا الحظّ. صحيح أنّ الاستئنافات، والرحلات، والحيوات الجديدة كانت بالنسبة إليه أيضًا، تحتفظ بجاذبيّتها، ولكنّه كان يعلم أنّ السعادة لا تتعلّق بها إلّا في ذهن الكسالى والعاجزين. كانت السعادة تفترض اختيارًا، وداخل هذا الاختيار إرادة مدبّرة وواعية. كان يسمع صوت زغرو: «ليس بإرادة الرفض،

ولكن بإرادة السعادة».

كانت ذراعه تحيط لوسيان، وفي يده يستريح نهد المرأة الدافئ اللدن.

في المساء نفسه، وفي السيّارة التي كانت تعيده إلى شنوة، كان مرسو يحسّ أمام انتفاخات المياه والروابي المنبعثة فجأة، بصمت كبير في ذاته. وكان في تصنّعه بعض الاستئنافات، وفي وعيه لحياته الماضية، قد حدّد في ذاته ما كان يريد وما كان لا يريد أن يكونه. وهذه الأيّام من التشتّت التي أخجلته كان يعتبرها خطرة، ولكن ضروريّة، وكان من الممكن أن يغرق فيها ويفوّت إذ ذاك تبريره الوحيد، ولكن كان عليه أيضًا أن يتلاءم مع كلّ شيء.

وبين ضربتيْ كابح، كان مرسو متشبّعًا بهذه الحقيقة، التي تُخجل والتي لا تقدّر بثمن في الوقت نفسه، حقيقة أنّ السعادة الفريدة التي يبحث عنها كانت تجد شروطها في اليقظات الصباحيّة، والحمّامات المنتظمة، وسلامة الصحّة الواعية. كان ينطلق مسرعًا جدًّا، مصمّمًا على أن يستفيد من انطلاقته ليستقرّ في حياة لن تتطلّب منه فيما بعد أيّة جهود، ليؤالف تنفّسه مع الإيقاع العميق للزمن والحياة.

وفي صباح اليوم التالي نهض باكرًا ونزل نحو البحر. كان اليوم إذ ذاك في تمام إشراقه، والصبح محمّلاً باختلاجات أجنحة وزقزقة عصافير. ولكنّ الشمس كانت تلامس فقط انحناءة الأفق، وعندما دخل مرسو في الماء الذي كان بعدُ بلا لمعان، خُيِّل إليه أنّه يسبح في ليل حائر، حتى إذا ارتفعت الشمس، غطّس ذراعيه في مساكب من الذهب الأحمر المثلج. وفي هذه اللحظة عاد، ودخل

بيته، وأحسّ جسده خفيفًا ومستعدًّا أن يتلقّى كلّ شيء. وفي الصباحات التي تلت، كان ينزل قبيل بزوغ الشمس.

كانت هذه الحركة الأولى تتحكّم في باقي نهاره. والحقّ أنّ هذه الاستحمامات كانت تتعبه، ولكنّها في الوقت نفسه، بما تخلّفه له من ضعف ومن طاقة، تمنح يومه كلّه مذاقًا من الاستسلام والتعب السعيد. ومع ذلك، فقد كانت نهاراته تبدو له طويلة ما تزال. لم يكن قد حلّ وقته بعد من هيكل عادات كان يتّخذها كصوى ومعالم. لم يكن لديه ما يفعله، وكان وقته يأخذ بالتالي كلّ امتداده. كانت كلّ دقيقة تجد قيمتها الأعجوبيّة، ولكنّه لم يكن يتعرّف عليها بعد بهذه الصفة. وكما كانت الأيّام في السفر، تبدو لا نهاية لها، بينما كان انقضاء الفترة في المكتب بين الاثنين والاثنين يتمّ بلمحة عين، كذلك فإنّه، وقد حُرم من ركائزه، كان يحاول أن يستعيدها في حياة لم يكن فيها مع ذلك ما يفعله. كان أحيانًا يمسك ساعة وينظر إلى العقرب وهو يتنقّل من رقم إلى آخر، فيذهله أن تبدو له خمس دقائق وقتًا لا ينتهي. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الساعة قد فتحت له الطريق الشاقّ المُعَذِّب الذي يقود إلى الفنّ الأعظم: فنّ عدم القيام بشيء. وتعلّم أن يتنزّه. وعند العصر، كان أحيانًا يسير بمحاذاة الشاطئ حتى الخرائب على الطرف الآخر، ويرقد عندها في الأبسنت ويده على حرارة حجر، يفتح عينيه وقلبه على عظمة هذه السماء المخنوقة بالحرارة، تلك العظمة التي لم تكن لتُحتمل. وكان يؤالف نبضات دمه مع نبضات الشمس العنيفة عند الساعة الثانية، وإذ يكون غاطسًا بين الروائح المتوحّشة وموسيقى الحشرات الناعسة، فإنّه ينظر إلى السماء تنتقل من

الأبيض إلى الأزرق الصافي، لتهوي فيما بعد حتى اللون الأخضر وتفرغ عذوبتها وحنوّها على الخرائب التي ما تزال حارّة. إذ ذاك كان يعود باكرًا وينام. وفي هذا السباق من شمس إلى شمس أخرى، كانت أيّامه تنتظم وفق إيقاع أصبح بطؤه وغرابته ضروريين بالنسبة له ضرورة مكتبه ومطعمه ونومه في الماضي. وفي الحالتين كلتيهما كان لاواعيًا تقريبًا. أمّا الآن فقد كان على الأقلّ، في ساعات صفائه، يحسّ أنّ الوقت ملكه، وأنّه في هذه اللحظة القصيرة التي تمتدّ ما بين البحر الأحمر والبحر الأخضر، كان شيء أبدي يتمثّل له في كلّ ثانية.

وليس أكثر من السعادة الفوبشريّة، لم يكن يستشفّ أبديّة خارج انحناءة الأيّام. كانت السعادة بشريّة والأبديّة يوميّة. وكان كلّ شيء يكمن في أن يعرف الإنسان أن يتواضع وأن ينظّم قلبه مع إيقاع الأيّام، بدلاً من أن يحني إيقاعهما وفق انحناءة أملنا.

وكما أنّه ينبغي معرفة التوقّف في الفنّ، وأنّ لحظة ما تأتي دائمًا ينبغي فيها لمنحوتةٍ ما أن لا تُمسّ بعد، وأنّ رغبة في الغباء تخدم فنّانًا، بهذا الصدد، أكثر من أشدّ وسائل التبصّر إرهافًا، كذلك لا بدّ من حدّ أدنى من الغباء لاستكمال السعادة لحياة ما.

من جهة أخرى، كان مرسو يلعب البليار يوم الأحد، مع بيريز. كان بيريز أكتع. وذراعه المبتورة مقطوعة فوق الكوع. وهكذا كان يلعب بطريقة غريبة.. يكوّر جذعه ويسند جدعته على طرفها. وعندما كان مرسو يذهب ليصطاد صباحًا، كان يعجب دائمًا ببراعة الصيّاد الشيخ الذي يمسك مجذافه الأيسر تحت إبطه ويقف منتصبًا في المركب، وجسمه مائل، فيدفع أحد المجذافين

بصدره والآخر بيده. وكان كلاهما متفاهمين إلى أبعد حدّ. بيريز يصنع الحبّار بمرقة لاذعة، فيطحنها بعصيره، ومرسو يتقاسم معه المرقة السوداء الملتهبة التي كان كلاهما يغمسها بالخبز في مقلاة مليئة بالشحم في مطبخ الصيّاد. ولم يكن بيريز، من جهته، يتكلّم أبدًا. كان مرسو معترفًا له بقدرته على الصمت. وكان أحيانًا، عند الصباح، بعد الحمّام، يراه وهو يلقي مركبه في البحر، فيتقدّم إذ ذاك قائلاً:

ـ هل أذهب معك يا بيريز؟

وكان الآخر يقول:

ـ اركب.

وإذ ذاك كانا يضعان المجذافين على ممسكين مختلفين ويجذّفان معًا محاذرين (مرسو على الأقلّ) أن يربكا أقدامهما بصنانير الحبال. ثم كانا يصطادان، وكان مرسو يراقب الخيوط اللمّاعة حتى سطح البحر، متموّجة وسوداء تحت الماء. كانت الشمس تتكسّر على الماء، ألوفًا من الشظايا، وكان مرسو يستنشق رائحة ثقيلة خانقة تصدر من البحر كأنّها تنفّس. وكان بيريز أحيانًا يُخرج سمكة صغيرة. فيرميها للحال قائلاً: «اذهبي إلى أمّكِ!» وعند الحادية عشرة كانا يعودان، مرسو، ويداه ملتمعتان بالقشور، ووجهه منتفخ بالشمس، يرجع إلى منزله كما لو أنّه يدخل قبوًا رطبًا، بينما كان بيريز يذهب ليهيّئ طبقًا من السمك يأكلانه معًا عند المساء.. ويومًا بعد يوم، كان مرسو يمضي في حياته كما يمضي في الانزلاق على الماء. ولمّا كان الإنسان يتقدّم بفضل مشاركة الذراعين والماء الذي يحمل وينقل، فقد كان يكفيه بعض الحركات

الرئيسيّة، يد على جذع شجرة أو ركض على الشاطئ، ليتماسك كاملاً وواعيًا: هكذا كان يدرك حياة في حالتها النقيّة، ويستردّ نعيمًا لم يكن يوهب إلّا لأكثر الحيوانات حرمانًا من الذكاء أو أكثرها هبة منه. وعند هذا الحدّ الذي ينكر فيه الفكرُ الفكرَ، كان يلامس حقيقته ومعها مجده وحبّه الأقصيين.

وبفضل برنار أيضًا، كان يمتزج بحياة القرية. لقد كان مضطرًّا إلى استدعائه بسبب وعكة بسيطة، ثم تقابلا فيما بعد وغالبًا بسرور. كان برنار صموتًا، ولكن صمته كان مصحوبًا بنوع من الفكر المرير يضفي إشعاعات في نظّارتيه المقشّرتين. كان قد مارس مهنته طويلاً في الهند الصينيّة ثم انسحب في الأربعين إلى هذا الركن من الجزائر. وهو منذ بضع سنين يمضي فيها حياة هادئة مع امرأته، وهي هنديّة صينيّة شبه خرساء، ذات شعر مرفوع على شكل كعيكة وثوب عصري. وكان برنار، بفضل قدرته على التسامح، يتآلف مع جميع الأوساط، وبهذا كان يحبّ القرية كلّها وكان محبوبًا منها. وكان يرافق مرسو إليها.

كان مرسو يعرف جيّدًا مدير الفندق، وهو صادح قديم يغنّي عند مكتبه، وبين مقطعين من «التوسكا» كان يعد امرأته بضربة. وقد طلب من باتريس أن يشارك مع برنار في لجنة الأعياد.

وفي أيّام الأعياد، ١٤ تمّوز أو غيرها، كانا يتنزّهان وعلى الذراع ساعدة ذات ثلاثة ألوان، أو كانا يتناقشان مع بقيّة الأعضاء، حول طاولة من الكتّان الأخضر لزجة بالمقبّلات السكّريّة، إذا كانت منصّة الموسيقيين ينبغي أن تكون محاطة بشجر المضاض أو سعف النخل. بل لقد أرادوا أن يجرّوه يومًا إلى صراع انتخابي، ولكن

مرسو كان قد أتيح له أن يعرف المختار، والذي «يشرف على مصائر بلدته» (كما كان يقول) منذ عشر سنين. وشبه الخلود هذا كان يحدو به إلى أن يظنّ نفسه نابليون بونابرت. كان كرّامًا قد أثرى حديثًا، فبنى لنفسه بيتًا على الطراز اليوناني، وكان قد دعا إليه مرسو. وهذا البيت يتألّف من طابق أرضي يعلوه طابق. ولكنّ المختار لم يكن يتراجع أمام أيّة تضحية، فكان أن زوّده بمصعد. وقد جعل مرسو وبرنار يجرّبانه، فقال برنار بهدوء: «إنّه ينزلق جيّدًا». ومنذ ذلك اليوم، يكنُّ مرسو إعجابًا عميقًا للمختار. وكان هو وبرنار يستعملان تأثيرهما بكامله لكي يبقياه في الوظيفة التي كان يستأهلها بفضل كثير من المزايا.

وفي الربيع، كانت القرية ذات السقوف الحمراء المتقاربة، بين الجبل والبحر، تعود فتختنق بالزهور والورود والجنبات المعترشة وبطنين الحشرات. وفي ساعة القيلولة، كان مرسو يدلف إلى سطيحته وينظر إلى القرية تنام وترسل بخارها تحت الأشعّة الفائضة. وكان تاريخ القرية يكمن في الخصام بين موراليس وبنغيش، وهما معمّران إسبانيّان ثريّان، كانت سلسلة من المضاربات قد حوّلتهما إلى مليونيرين. ومنذ تلك اللحظة، كانت حمّى العظمة قد امتلكتهما. فعندما كان أحدهما يشتري سيّارة، ينتقي أغلاها ثمنًا. ولكنّ الآخر الذي يشتري مثلها كان يضع عليها مقابض من الفضّة. وكان العبقري في هذه الحالة موراليس الذي كانوا يطلقون عليه لقب «ملك إسبانيا» ذلك أنّه في كلّ شيء، كان قد انتصر على بنغيس الذي يفتقر إلى الخيال. ففي اليوم الذي اكتتب فيه بنغيس، أثناء الحرب، بعدّة مئات من آلاف الفرنكات

للقرض الوطني، صرّح موراليس بقوله: «أنا أفعل أحسن، إنّني أعطي ابني». وجنّد ابنه الذي كان ما يزال صغيرًا... وفي عام ١٩٢٥، كان بنغيس قد وصل من مدينة الجزائر بسيّارة سباق فخمة من طراز «بوغاتي». وبعد خمسة عشر يومًا، كان موراليس قد بنى لنفسه مرآبًا واشترى طائرة «كودرون» وكانت هذه الطائرة ما تزال ترقد في مرآبها.

يوم الأحد فقط، كانوا يعرضونها أمام الزوّار. وعندما كان بنغيس يتحدّث عن موراليس، كان يقول: «هذا العاري ـ القدمين»؛ وكان موراليس يقول عن بنغيس: «قمينة الجير هذا».

واصطحب برنار مرسو إلى بيت موراليس، فاستقبلهما هذا الأخير في المزرعة الكبيرة المليئة بالزنابير وبروائح العنب، استقبالاً مطبوعًا بكلّ دلائل الاحترام، ولكنّه كان يلبس حذاء الرياضة وقميصًا قصير الأكمام، لأنّه لم يكن يستطيع تحمّل السترة والحذاءين. وقد عرض أمامهما الطائرة، والسيّارات، ومداليّة الابن المؤطّرة والمعروضة في الصالون. أخذ موراليس يشرح لمرسو ضرورة إبعاد الأجانب عن الجزائر الفرنسيّة (كان هو متجنّسًا «أمّا بنغيس ذاك مثلاً»). ثم قادهما إلى اكتشاف جديد ـ فدخلوا حقلاً واسعًا للعنب أقيمت في وسطه مستديرة. وفي هذه المستديرة صُفّ طقم صالونٍ من طراز لويس الخامس عشر، صُنع بأفخر الخشب والقماش. وهكذا كان موراليس يستطيع أن يستقبل ضيوفه في أراضيه. وقد أجاب على مرسو الذي استعلمه بأدب عمّا كان

(*) كُتبت هذه الرواية عام ١٩٣٨ ونُشِرَتْ بعد وفاته. ولم تكن الجزائر قد نالت استقلالها بعد.

يحدث في أوقات المطر، أجاب من دون أن يهتزّ من فوق سيكاره: «إنّني أستبدله». وكانت العودات مع برنار تقضي إذ ذاك في تمييز الثري الكبير من الشاعر. فقد كان موراليس، في نظر برنار، شاعرًا. وكان مرسو يفكّر أنّه كان جديرًا به أن يكون إمبراطورًا رومانيًا رائعًا في عهد الانحطاط.

وبعد فترة من الوقت، أتت لوسيان لتقضي بضعة أيّام في الشنوة ثم رحلت. وذات أحد صباحًا، أتت كلير وروز وكاترين يردِدن الزيارة لمرسو كما كنّ قد وعدنه. ولكن باتريس كان الآن بعيدًا جدًّا عن الحالة الفكريّة التي دفعته إلى مدينة الجزائر في الأيّام الأولى لعزلته. ومع ذلك، فقد سعد لرؤيتهنّ من جديد. وقد ذهب لاصطحابهنّ مع برنار عند موقف الباص الكناري الكبير الذي يقوم بالخدمة. كان اليوم رائعًا، والقرية مكتظّة بعربات القصّابين المتجوّلين الجميلة الحمراء وبالورود الكثيفة والناس المرتدين ألوانًا زاهية. وقد جلسوا فترة في مقهى، بناء على طلب كاترين. كانت تتأمّل بإعجاب هذا الألق وهذه الحياة، وخلف الحائط الذي استندت إليه كانت تحزر وجود البحر. وفي لحظة الذهاب انفجرت موسيقى مذهلة في شارع قريب جدًّا. كان، بلا شكّ، «مارش التوريادور» في «كارمن»، ولكنّه كان من الصخب والحيويّة بحيث إنّه يحول دون أن تحتفظ الآلات بدورها. قال برنار: «إنّه مجتمع الرياضة». ومع ذلك، فقد لوحظ انبثاق عشرين موسيقيًّا مجهولاً كانوا لا يكفّون عن النفخ في الآلات الهوائيّة المختلفة. يتقدّمون نحو القهوة ثم انبثق من خلفهم موراليس، على رأسه قبّعة قشّ مرتدّة إلى خلف وموضوعة على منديل، فيما كان يترطّب بمروحة

دعائيّة. كان قد استأجر هؤلاء الموسيقيين من المدينة لأنّه، كما فسّر ذلك فيما بعد، «بهذه الأزمة تبدو الحياة حزينة أكثر ممّا ينبغي». وقد جلس ورتّب من حوله الموسيقيين الذين أنهوا لحن سيرهم. كان المقهى مكتظًّا بالجمهور. إذ ذاك نهض موراليس، وبحركة دائريّة، قال بوقار: «بناء على طلبي، ستعزف الفرقة الموسيقيّة من جديد «توريادور».».

وكانت الحمقاوات الصغيرات، عند ذهابهنّ، يختنقن من الضحك. ولكن حين وصلن إلى البيت، في ظلّ ورطوبة الغرف التي تحيل البياض المتألّق للجدران المليئة بشمس الحديقة أكثر حساسيّة، وجدن من جديد صمتًا وتجاوبًا عميقًا عبّر عن ذاته، عند كاترين، بالرغبة في أخذ حمّام شمسي على السطيحة. عند ذلك أعاد مرسو برنار. وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يطّلع فيها برنار على شيء من حياة مرسو. ولم يسبق لهما قطّ أن تكاشفا بشيء، إذ كان مرسو يعي أنّ برنار لم يكن سعيدًا، وكان برنار حائرًا بعض الشيء إزاء حياة مرسو. وقد افترقا من غير أن يقولا كلمة. واتّفق مرسو مع صديقاته على الذهاب في رحلة صباح الغد الباكر. كانت الشنوة عالية جدًّا، وصعبة التسلّق. وقد كان ثمّة يوم جميل من التعب والشمس ينتظرهم.

في الصباح الباكر، تسلّقوا المنحدرات الأولى القاسية. كانت روز وكلير تتقدّمان، وباتريس يقفل المسيرة مع كاترين. كانوا صامتين. يرتفعون شيئًا فشيئًا فوق البحر الذي كان ما يزال أبيض بين غيوم الصباح. وكان باتريس يلتزم الصمت أيضًا؛ مندمجًا كليًّا بالجبل ذي الجمة المملوطة والمشعّث بالسورنجان، وبالينابيع

المثلوجة، وبالظلّ والشمس، وبجسده الذي كان يوافق ثم يرفض. كانوا يلجون جهد السير المكثّف، ونسيم الصبح في رئاتهم كحديد محمّى أو موسى محدّدة، مانحين أنفسهم كليًّا لهذه المثابرة ولهذا التفوّق على الذات اللذين كانا يجهدان لينتصرا على المنحدر. أحسّت روز وكلير بالتعب، فأبطأتا سيرهما. فتقدّمت كاترين ومرسو، وما لبثا أن غابا عن نظرهما.

قال باتريس: «هل كلّ شيء على ما يرام؟».

قالت: «نعم. هذا جميل جدًّا».

كانت الشمس ترتفع في السماء، ومعها صرير حشرات يتفاقم مع الحرارة. وفيما بعد خلع باتريس قميصه، وتابع طريقه عاري الصدر. كان العرق يسيل على كتفيه، حيث كانت الشمس قد شالت قشارة الجلد. وسلكا طريقًا صغيرة تبدو محاذية جنب الجبل. وكانت الأعشاب التي يسحقانها أكثر نداوة. وما لبث أن استقبلهما صوت ينابيع وتدفّق نداوة وظلال. رشّ أحدهما الماء على الآخر، وشربا قليلاً، ثم تمدّدت كاترين على العشب، بينما كان باتريس، وشعره مسودّ من الماء ومشبوك على جبينه، يخفض عينيه أمام المشهد المغطّى بالخرائب، وبالطرقات اللمّاعة وبتألّقات الشمس. ثم جلس قرب كاترين.

قالت كاترين:

ـ مرسو، ما دمنا وحدنا، قل لي إن كنت سعيدًا؟

قال مرسو:

ـ انظري.

كانت الطريق تهتزّ في الشمس، وطائفة كبيرة من البكتيريات المتعدّدة الألوان تصعد إليهما. كان باتريس يبتسم ويداعب ذراعيه.

ـ أردت فقط أن أسألك. وبالتأكيد، فإنّك لن تجيب إن أزعجك ذلك. (وتردّدت) هل تحبّ زوجتك؟

ابتسم مرسو:

ـ ليس هذا من الضروري.

وأمسك بكتف كاترين، ورشّ بالماء وجهها وهو يحني رأسه، وأضاف يقول:

ـ الخطأ، يا كاترين الصغيرة، هو الاعتقاد بوجوب الاختيار، بوجوب عمل ما نريده، بأنّ هناك شروطًا للسعادة. إنّ ما يهمّ فقط، هو إرادة السعادة، نوع من الوعي الهائل الحاضر أبدًا. أمّا الباقي، النساء، الأعمال الفنّيّة أو النجاحات الدنيويّة، فليس إلّا ذرائع. إنّه شبكة تنتظر تطريزاتنا.

قالت كاترين وعيناها مليئتان بالشمس:

ـ نعم.

ـ إنّ ما يهمّني إنّما هي صفة معيّنة للسعادة. إنّني لا أستطيع أن أتذوّق السعادة إلّا في المواجهة العنيدة العنيفة التي تقوم بها مع نقيضها. تسألينني إن كنت سعيدًا؟ كاترين! إنّك تعرفين القول المأثور: «لو كان عليّ أن أعيد حياتي». فإنّني سأعيدها كما هي. وبالطبع، لا يمكنك أن تعرفي ما يعنيه ذلك.

قالت كاترين: لا.

ـ كيف أفسّر لكِ ذلك، يا صغيرتي. لئن كنت سعيدًا، فذلك

بفضل إحساسي بالخطأ. لقد كنت بحاجة إلى الرحيل وإلى كسب هذه الوحدة التي استطعت فيها أن أواجه في نفسي ما كان ينبغي مواجهته، ما كان شمسًا وما كان دموعًا.. أجل، إنّني، بشريًا، سعيد.

ووصلت روز وكلير، فاستأنف الجميع السير. كان الطريق ما يزال يحاذي الجبل تاركًا إيّاهم في منطقة نباتيّة غزيرة، طرقاتها ما تزال محاطة بشجر الصبّار والزيتون والعنّاب. وكانوا يلتقون بعرب يركبون حميرًا. ثم صعدوا. كانت الشمس تصفع الآن بضربات محتدمة كلّ حجر في الطريق. وعند الظهر، كانوا مسحوقين بالحرارة، سكارى من العطور والتعب، فرموا أكياسهم وتخلّوا عن بلوغ القمّة. لقد كانت المنحدرات صخريّة ومليئة بالصوان. وظلّلتهم شجرة سنديان ضامرة بظلّها المستدير. سحبوا المؤن من الأكياس وأكلوا. كان الجبل كلّه يرتجّ تحت الأشعّة والزيزان، والحرارة تصعد فتحاصرهم تحت سنديانتهم. انقلب باتريس على الأرض ملتصق الصدر بالأحجار فتنشّق عبيرًا لاهبًا. وتلقّى في بطنه ضربات الجبل الخرساء الذي كان يبدو في حالة حراك. وانتهت رتابة تلك الضربات، وغناء الحشرات المصمّ بين الأحجار الحارّة والعطور البرّيّة ـ انتهت بأن أنامته.

عندما استيقظ، كان مكسوًّا بالعرق، متيبّسًا. وكانت الساعة تقارب الثالثة. والفتيات قد اختفين. وما لبثت ضحكات وصيحات أن أنبأت عنهنّ. وكانت الحرارة قد خفّت. كان ينبغي الهبوط من جديد. وفي تلك اللحظة بالذات، ولأوّل مرّة، في منتصف الطريق، أصيب مرسو بإغماء. وحين نهض، لمح البحر شديد

الزرقة من خلال ثلاثة وجوه قلقة. استأنفوا الهبوط على مهل، وعند المنحدرات الأخيرة، طلب مرسو استراحة. كان البحر يخضرّ مع السماء، وعذوبة تامّة تصعد من الأفق. وعلى الروابي التي تمدّد الشنوة حول الجون الصغير، كانت شجرات السرو تسودّ على مهل. كانوا جميعًا صامتين، ومع ذلك قالت كلير:

ـ يبدو عليك التعب.

ـ بلا شكّ. أيّتها الفتاة الصغيرة!

ـ اسمع. إنّ الأمر لا يعنيني. ولكن هذه المنطقة لا تناسبك في شيء. إنّها مفرطة القرب من البحر، مفرطة الرطوبة. فلماذا لا تذهب لتعيش في فرنسا، في الجبال؟

ـ هذه المنطقة لا تفيدني شيئًا، يا كلير، ولكنّني سعيد فيها. إنّني أحسّ بوفاق مع نفسي.

ـ إنّما أدعوك إلى هذا لكي تستطيع أن تكون كذلك كلّيًا ولمدّة أطول.

ـ لا يعيش المرء سعيدًا لمدّة أقصر أو أطول. إنّه يكون سعيدًا، هذا كلّ شيء. والموت لا يمنع شيئًا. إنّه عارض طارئ للسعادة في هذه الحالة.

وسكتوا جميعًا. ولكن روز قالت بعد فترة:

ـ لست مقتنعة.

وعادوا إلى البيت على مهل في المساء الهابط.

تكفّلت كاترين باستدعاء برنار. وكان مرسو في غرفته، ومن فوق ظلّ مربّعات البيت اللمّاع، كان يرى بقعة الدرابزون البيضاء،

والبحر كشريط من القماش الداكن المتموّج يعلوه الليل الأكثر إضاءة، وإن كان بلا نجوم. وكان يحسّ الضعف. ولكن ضعفه، بفضل أعجوبة خيّرة، كان يخفّف من همّه ويجعله صافيًا. وحين طرق برنار الباب، أحسّ مرسو بأنّه سيقول له كلّ شيء. ليس بسبب أنّ سرّه يثقل عليه. فإنّه لم يكن في ذلك أيّ سرّ. لئن كان قد كتم سرّه حتى الآن، فإنّما كان ذلك بالقدر الذي يحفظ به المرء أفكاره في بعض الأوساط لأنّه يعلم أنّها ستصدم الأفكار المسبقة والغباوة. ولكنّه اليوم، بالرّغم من كلّ تعب جسده وصدقه العميق، فإنّ مرسو، شأنه في ذلك شأن الفنّان بعد أن يكون قد داعب وبنى لفترة طويلة عمله وأحسّ بضرورة إخراجه إلى النور والتواصل أخيرًا مع البشر، أنّ مرسو كان يحسّ أنّ عليه أن يتكلّم. ومن غير أن يكون متأكّدًا من أنّه سيفعل ذلك، كان ينتظر برنار بنفاد صبر.

ومن غرف الطابق الأرضي تصاعدت ضحكتان نديّتان جعلتاه يبتسم. في هذه اللحظة، دخل برنار، فقال:

ـ ما المسألة؟

قال مرسو:

ـ كما ترى.

وضع السمّاعة على صدره. لم يكن باستطاعته أن يقول شيئًا. ولكنّه كان يودّ أن يجري له تصويرًا على الأشعّة، إذا كان يقوى على ذلك.

وأجاب مرسو:

ـ فيما بعد.

صمت برنار وجلس على حافّة كوّة النافذة، ثم قال:

ـ إنّني لا أحبّ أن أكون مريضًا، أنا. إنّني أعرف ما يعنيه ذلك. ليس هناك ما هو قبيح ومُحبط أكثر من المرض.

كان مرسو غير مكترث. وقد نهض من مقعده، وقدّم لفائف لبرنار فأشعل واحدة منها وهو يضحك:

ـ هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً يا برنار؟

ـ نعم.

ـ إنّك لا تأخذ حمّامات بحر قطّ، فلماذا إذن كنت قد اخترت هذا المكان لتعتزل؟

ـ آه! إنّني لا أدري تمامًا. كان ذلك منذ زمن بعيد.

وبعد فترة أضاف:

ـ ثم إنّني تصرّفت دائمًا بدافع من ضغينة. أمّا الآن فقد تحسّنت الأمور. في السابق، كنت أريد أن أكون سعيدًا، وأن أعمل ما ينبغي عمله، أن أستقرّ مثلاً في بلد يروق لي. ولكنّ الاستباق العاطفي هو دائمًا زائف. وإذن، فيجب أن نعيش كأسهل ما نستطيع أن نعيش، وألّا نقتسر الأمور. إنّ ذلك فظّ بعض الشيء. ولكنّه أيضًا وجهة نظر أجمل فتيات العالم. في الهند الصينيّة، مضيت إلى أبعد الحدود. أمّا هنا فإنّني أجترّ. ببساطة.

قال مرسو، من غير أن يتوقّف عن التدخين، وهو غاطس في مقعده ينظر إلى السقف:

ـ نعم، ولكنّي لست متأكّدًا من أنّ كلّ استباق عاطفي هو زائف. إنّ هذه الاستباقات هي فقط ضالّة. وعلى كلّ حال، فإنّ

التجارب الوحيدة التي تهمّني هي تلك التي يكون فيها كلّ شيء بالضبط كما نأمل أن يكون.

وابتسم برنار:

ـ أجل، مصير وفق المقاييس.

قال مرسو، من غير أن يتحرّك:

ـ إنّ مصير إنسان ما، هو دائمًا أخّاذ إذا استطاع أن يتزوّجه بشغف. ومصير أخّاذ، بالنسبة للبعض، هو دائمًا مصير وفق مقاييس.

قال برنار: «نعم». ونهض بجهد ونظر لحظة إلى الليل، وظهره متّجه بعض الشيء نحو مرسو.

ومن غير أن ينظر إليه، استأنف يقول:

ـ إنّك معي في هذا البلد الرجل الوحيد الذي يعيش بلا رفقة. إنّني لا أتحدّث عن زوجتك وعن أصدقائك. فأنا أعرف جيّدًا أنّهم أحداث عرضيّة، ومع ذلك، فيبدو عليك أنّك تحبّ الحياة أكثر منّي (واستدار إليه) ذاك أنّ حبّ الحياة، بالنسبة لي، ليس أخذ الحمّامات، بل أن يعيش المرء بطريقة مدوّخة، جامحة. نساء، ومغامرات، وبلاد. أن تعمل، أن تُخضِع شيئًا ما. حياة ملتهبة ومدهشة. أقصد... إفهمني... (كان يبدو وكأنّه خجل من أن يكون قد تحمّس) إنّني أكثر حبًّا للحياة من أن أشفي غلّني من الطبيعة.

كان برنار يلتقط مسماعه ويغلق حقيبة عدّته. فقال له مرسو:

ـ إنّك في الواقع مثالي.

لقد كان لديه هو الشعور بأنّ كلّ شيء كان محصورًا في هذه اللحظة التي تمتدّ من الولادة حتى الموت، وأنّ كلّ شيء يحكم عليه ويكرّس هنا.

قال برنار بنوع من الحزن:

ـ الواقع أنّ نقيض المثالي هو، في غالب الأحيان، رجل بلا حبّ.

قال مرسو وهو يمدُّ إليه يده:

ـ لا تعتقد ذلك.

وشدّ برنار عليها فترة طويلة، ثم قال مبتسمًا:

ـ إذا أردنا التفكير مثلك، فلن يكون هناك إلّا رجال يعيشون على يأس كبير أو أمل كبير.

ـ ربّما على الاثنين.

ـ أوه، إنّني لا أطرح سؤالاً!

قال مرسو بجدّ:

ـ إنّني أعلم.

ولكن حين بلغ برنار الباب، ناداه مرسو، مدفوعًا باندفاع لا واعٍ:

قال الطبيب وهو يلتفت: «نعم».

ـ هل أنت قادر على أن تكنّ احتقارًا لإنسان؟

ـ أظنّ.

ـ بأيّة شروط؟

وفكّر الآخر:

ـ يبدو لي أنّ ذاك بسيط بما فيه الكفاية. في جميع الحالات التي يكون فيها المرء مدفوعًا بالمصلحة أو بحبّ المال.

قال مرسو:

ـ هذا بسيط، بالفعل. مساء الخير يا برنار.

ـ مساء الخير.

وإذ بقي مرسو وحيدًا، أخذ يفكّر. إلى الحدّ الذي بلغه، فإنّ احتقار إنسان كان يتركه لامباليًا. ولكنّه كان يجد لدى برنار أصداء عميقة كانت تقرّبه منه. وكان يبدو له غير محتمل أن يدين قسم منه القسم الآخر. أتراه كان قد تصرّف بدافع المصلحة؟ كان قد وعى هذه الحقيقة الأساسيّة واللاأخلاقيّة بأنّ المال هو إحدى الوسائل الأضمن والأسرع لكي يكتسب كرامته. وكان قد توصّل إلى طرد المرارة التي تستولي على كلّ نفس كريمة النسب وهي تتأمّل ما في ولادة مصير جميل وشروط نموّه من ظلم ونذالة. وتلك اللعنة القذرة المثيرة التي تجعل الفقراء يُنهون في البؤس الحياة التي بدأوها في البؤس، كان قد أبعدها وهو يحارب المال بالمال، ومع الكراهية الكراهية. ومن هذا الصراع بين وحش ووحش، كان يتّفق أحيانًا أن يخرج الملاك، منغمسًا بأكمله في سعادة جوانحه ومجده، تحت نفحة البحر الدافئة. كان يبقى فقط أنّه لم يكن قد قال شيئًا لبرنار وأنّ عمله سيظلّ بعد الآن سرًّا.

في عصر اليوم التالي، حوالى الساعة الخامسة، ذهبت الصديقات. وفي لحظة الصعود إلى الأوتوبيس، التفتت كاترين إلى البحر وقالت:

ـ إلى اللقاء، أيّها الشاطئ.

وبعد لحظة، كانت ثلاثة وجوه ضاحكة تنظر إلى مرسو عبر زجاج الداخل. وكحشرة ضخمة مذهّبة، كان الأوتوبيس الأصفر يختفي في الأشعّة. وبالرّغم من أنّ السماء كانت صافية، فقد كانت خانقة بعض الشيء. وإذ كان مرسو وحيدًا في الطريق كان يحسّ في أعماق قلبه مزيجًا من الخلاص والحزن. اليوم فقط كانت وحدته تصبح حقيقيّة لأنّه اليوم فقط كان يحسّ نفسه مرتبطًا بها. وأن يكون قد قبلها، وأن يدرك أنّه بعد الآن سيّد أيّامه القادمة، فإنّ ذلك كان يملأه بالكآبة التي تلتصق بكلّ عظمة.

وبدلاً من أن يسلك الطريق الرئيسيّة، عاد بين شجرات الخرنوب والزيتون في ممرّ صغير منحرف يمرّ عند أسفل الجبل وينتهي خلف بيته. وقد سحق بقدمه بعض حبّات الزيتون ولاحظ أنّ الطريق كان بأكمله مخطّطًا بالبقع السوداء. في آخر الصيف، كانت شجرات الخرنوب تضفي رائحة حبّ على الجزائر كلّها. وفي المساء أو بعد المطر، كانت الأرض كلّها تبدو وكأنّها، بعد أن تكون قد منحت نفسها للشمس، تريح بطنها المبتلّ ببذارٍ عطرُه كعطر اللوز المرّ. وطوال النهار، كانت رائحتها قد هبطت من الشجرات الكبيرات، ثقيلة وخانقة. وفي هذا الممرّ الصغير، مع المساء، وتأوّه التربة الرخي، كانت الرائحة تغدو خفيفة، لا يكاد أنف باتريس يحسّها كعشيقة تخرج معها في الطرقات بعد عصر خانق، فتنظر إليك، وكتفها لصق كتفك، وسط الأضواء والناس.

أمام رائحة الحبّ هذه وثمراتها المسحوقة العطرة، أدرك مرسو أنّ الموسم ينتهي، وأنّ شتاء كبيرًا سيطلّ. ولكنّه كان ناضجًا

لانتظاره. ومن هذا الممرّ، لم يكن البحر يُرى، ولكن كان باستطاعة المرء أن يلاحظ عند قمّة الجبل غيومًا خفيفة محمرّة كانتِ تبشّر بالمساء. وعلى الأرض، كانت بقع من الأشعّة تشحب بين ظلال الأغصان.

وتنشّق مرسو بعنف الرائحة المرّة العطرة التي تكرّس في ذلك المساء عرسها مع التربة. وهذا المساء الذي كان يهبط على العالم، في الطريق بين شجرات الزيتون والمصطكا، على الكروم والتربة الحمراء، قرب البحر الذي كان يهدر بهدوء، هذا المساء كان يدخل فيه كالمدّ. كثير من الأمسيات الشبيهة كانت في نفسه كوعد بالسعادة. وأن يحسّ بهذه الأمسية كسعادة، ذلك ما جعله يقيس الطريق الذي كان قد اجتازه من الأمل حتى النصر. وفي براءة قلبه، كان يتقبّل هذه السماء الخضراء وهذه الأرض التي يبلّلها الحبّ، بارتعاشه الهوس والشهوة نفسها التي تملّكته حين قتل زغرو في براءة قلبه.

الفصل الخامس

في كانون الأوّل، أزهرت شجرات اللوز. وفي آذار، اكتست شجرات الإجاص والدرّاق والتفّاح بالأزهار. وفي الشهر الذي تلا، ربت الينابيع ربوًا غير ملحوظ، ثم عادت إلى منسوب طبيعي. وفي أوائل أيّار قطعوا الحشيش، وفي الأيّام الأخيرة، حصدوا الشوفان والشعير. وكانت أشجار المشمش قد انتفخت بالصيف. وفي حزيران، ظهر الإجاص الباكوري مع الحصاد الكبير. وكانت الينابيع قد بدأت تشحّ والحرارة تتفاقم. ولكن دم الأرض، الناضب في هذا الجانب، كان يُزهر في جانب آخر القطنَ ويسكّر أوائل الأعناب. وهبّت ريح عنيفة لاهبة جفّفت الأراضي وأشعلت حرائق في كلّ مكان تقريبًا. ثم فجأة، انقلبت السنة. وبسرعة انتهى القطاف. وكنّس المطر الأرض بفيضانات كبيرة من أيلول حتى تشرين الثاني، ومعها، وما كادت أعمال الصيف تنتهي حتى بدأت حقول القمح وأوان البذار الأولى، بينما كانت الينابيع تتضخّم فجأة وتتفجّر سيولاً. وفي آخر السنة كان القمح قد بدأ ينبت في بعض الأراضي، بينما لم تكد أراض أخرى تنتهي من استقبال الحراثة. وبعد ذلك بقليل، غدت

شجرات اللوز من جديد بيضاء في السماء المثلجة الزرقاء. وتتابعت السنة الجديدة في الأرض والسماء. وغُرس الدخان، وحُرثت الكرمة وكُبرتت، وطُعّمت الأشجار. وفي الشهر نفسه، نضج الزعرور، ومن جديد، أقبل أوان حصاد الكلأ، وحصاد الصيف. وفي منتصف السنة، كانت الثمار التارّة التي تلتصق بالأصابع تغطّي الطاولات: التين، الدرّاق والإجاص التي تؤكل بشراهة بين دِراسين. وفي موسم القطاف التالي، اكتست السماء، فمرّت أسراب سوداء صامتة من الزرازير والسمّن، قادمة من الشمال. كان مرورها يعني أنّ الزيتون قد بدأ ينضج. وحُوّش فعلاً بعد فترة من مرورها، وفي الأرض اللزجة، نبت القمح مرّة ثانية. ومرّت رفوف ضخمة من الغيوم قادمة هي أيضًا من الشمال على البحر وعلى الأرض، فمسحت عن الماء زَبَده وتركته نقيًّا مثلجًا تحت سماء من البلّور. ولعدّة أيّام، حصل في المساء برق بعيد صامت. وبدأت أيّام البرد الأولى.

في هذا التاريخ تقريبًا، لزم مرسو الفراش لأوّل مرّة. فقد حبسته نوبات داء الجنب وألزمته غرفته شهرًا. وعندما شُفي، كانت أواخر منحدرات شنوة قد اكتست بالأشجار المزهرة التي تنحدر نحو البحر. لم يسبق قطّ لأيّ ربيع أن وجده حسّاسًا إلى هذا الحدّ، وأوّل ليلة من نقاهته، مشى طويلاً عبر الأراضي حتى الرابية المليئة بالخرائب حيث ترقد تيبازا. وفي صمت مسكون بأصوات السماء الحريريّة، كان الليل أشبه بحليب على العالم. وكان مرسو يمشي على الشاطئ الصخري، مشبعًا بتأمّل رزين لهذا الليل. والبحر، دونه قليلاً، يهدر بهدوء. وكان يُرى مليئًا بالقمر

والمخمل، طريًا، أملس كأنّه وحش. في هذه الساعة التي كانت تبدو له فيها حياته بعيدة جدًّا، بدا لمرسو وهو وحيد، غير مكترث بشيء ولا بنفسه، أنّه كان قد بلغ أخيرًا ما كان يبحث عنه، وأنّ هذا السلام الذي يملأه قد وُلد من استسلامه الصبور الذي قد تابعه وبلغه، بمساعدة هذا العالم الحارّ الذي ينكره بلا غضب. كان يمشي بخفّة، ووقع خطاه يبدو له غريبًا، مألوفًا بلا شكّ، ولكن كحفيف الحيوانات بين أدغال الزعرور، وإيقاعات البحر أو خفقات الليل في أعماق السماء. وكان كذلك يشعر بجسده، ولكن بالإحساس الخارجي ذاته الذي يحسّ به النفحة الحارّة لهذا الليل الربيعي ورائحة الملح والعفن التي كانت تصعد من البحر. كانت جولاته في العالم، وإصراره على تطلّب السعادة، وجرح زغرو المريع، المليء بالمخّ والعظم، والساعات العذبة المحترسة في «البيت أمام العالم»، وامرأته، وآماله وآلهته، كلّ ذلك كان ماثلاً أمامه، ولكن كقصّة مفضّلة بين جميع القصص، من غير سبب مقبول، غريبة ومألوفة بطريقة خفيّة في آن واحد، كتاب أثير يدغدغ ويؤكّد أعمق ما في القلب، ولكنّه كتاب كَتَبه آخر. ولأوّل مرّة، لم يكن يحسّ في نفسه أيّة حقيقة أخرى غير حقيقة هوسٍ للمغامرة، رغبة نسغ، غريزة ذكيّة ودِّيّة لقرابة العالم.

وبلا غضب ولا حقد، لم يكن يعرف ندمًا. كان جالسًا على صخرة يحسّ وجهها المجدور تحت أصابعه، وهو ينظر إلى البحر ينتفخ بصمت تحت ضوء القمر. كان يفكّر بوجه لوسيان الذي كان قد داعبه وبدفء شفتيها. وعلى سطح الماء السويّ، كان القمر، الشبيه بالزيت، يضع ابتسامات طويلة تائهة. ولا بدّ أنّ الماء كان

دافئًا كفم، رخيًا مستعدًا للانغمار تحت جسم إنسان. وإذ ذاك، أحسّ مرسو وهو ما يزال جالسًا، كم كانت السعادة قريبة من الدموع، مغمورة كلّيّةً في هذا الهوس الصامت الذي يُنسَج فيه الأمل واليأس ممزوجين من حياة إنسان. كان مرسو واعيًا ومع ذلك غريبًا، منهوشًا بالهوس ومتجرّدًا، فكان يدرك أنّ حياته نفسها ومصيره ينتهيان هنا، وأنّ كلّ جهده سيبذل بعد الآن ليتدبّر أمره مع هذه السعادة وليواجه حقيقتها المرعبة.

كان ينبغي له أن يغطس في البحر الحارّ، وأن يتيه ليجد نفسه ثانية، وأن يسبح في القمر والدفء لكي يصمت ما كان في داخله باقيًا من الماضي ولكي يولد لحن سعادته العميق. تعرّى، ونزل بضعة صخور ودخل في البحر. كان حارًّا كجسد، وكان ينزلق على طول ذراعه، ويلتصق بساقيه بضمّة لا تحتجز وهي مع ذلك حاضرة أبدًا. كان هو يسبح بانتظام ويحسّ بعضلات ظهره توقّعُ حركته. وكلّما رفع ذراعه، كان يرمي على البحر الشاسع قطرات فضّة متراشقة، ممثّلة، أمام السماء الخرساء الحيّة، البذور الرائعة لحصاد من السعادة. ثم كانت الذراع تغطس من جديد، كسكّة حراثة قويّة، فتفلح المياه وتشقّها إلى نصفين لكي تتخذ فيها سندًا جديدًا وأملاً أكثر شبابًا. وخلفه كان ينبعث من تخبّطات قدميه فوران زبد، وفي الوقت نفسه صوت ماء هادر، صاف صفاء غريبًا في الوحدة وصمت الليل. ولإحساسه بإيقاعه وقوّته، كان نوع من الحماسة يكتسحه، فيتقدّم بمزيد من السرعة، وفيما بعد وجد نفسه بعيدًا عن الشواطئ، وحيدًا في قلب الليل والعالم. وفكّر فجأة بالأعماق التي تمتدّ تحت قدميه فأوقف حركته. كلّ ما قد كان

تحته كان يجذبه كأنّه وجه عالم مجهول، امتداد هذا الليل الذي كان يعيده لذاته، وقلب حياة من ماء وملح لم تُكتشف بعد. راوده إغراء أبعده في الحال، بفرح كبير للجسد. فسبح بقوّة أكثر وبتقدّم أكبر وكان متعبًا جسديًا تعبًا رائعًا، فرجع نحو الضفّة. وفي تلك اللحظة، دخل فجأة في تيّار مثلج فاضطر إلى التوقّف، مصطكّ الأسنان، مضطرب الحركات. وهذه المفاجأة التي واجهه بها البحر تركته دهشًا مذهولاً، وكان ذلك الثلج ينفذ إلى أطرافه فيحرقه كحبّ إله بحماس صاف ومهووس كان يخلّفه بلا قوّة. وعاد بمشقّة أكبر، وعلى الضفّة، بمواجهة السماء والبحر، ارتدى ملابسه وأسنانه تصطكّ وهو يضحك من السعادة.

حين عاد إلى منزله، تملّكه انزعاج. ومن الممرّ الضيّق الذي كان يصعد من البحر نحو دارته، كان يستطيع أن يرى الرعن الصخري الذي كان يقابله، وجذوع الأعمدة والخرائب الملساء. وفجأة، انقلب المشهد ووجد نفسه مستندًا إلى صخرة، نصف منقلب على دغل من شجر الزعرور كانت أوراقه المسحوقة تترك رائحتها تفوح. وعاد بمشقّة إلى الدارة. كان جسده الذي كان قد حمله الساعة إلى آخر حدود الفرح يُغرقه الآن في ضيق كان يأخذ بأحشائه ويغلق منه العينين. وصنع لنفسه شايًا. ولكنّه كان قد أخذ إناء قذرًا، ليسخّن الماء، فكان الشاي مدهنًا حتى الغثيان. ومع ذلك، فقد شربه قبل أن يذهب لينام.

وحين خلع حذاءه، لاحظ على يديه اللتين كان الدم قد انسحب منهما، أنّ أظافره ورديّة جدًا، ومتّسعة ومحنيّة حتى إنّها تغطّي أطراف الأصابع. إنّه لم يسبق له قطّ أن كانت له مثل هذه

الأظافر التي تضفي على يده مظهرًا من الالتواء والانحراف. وكان يحسّ صدره محصورًا في ملزمة. سعل وبصق عدّة مرّات بطريقة طبيعيّة بالرّغم من أنّ فمه احتفظ بمذاق دم.

وفي السرير، انتابته ارتجافات طويلة، كان يحسّها تصعد من أقصى الجسد وتلتقي عند الكتفين كخيطي ماء مثلج، بينما كانت أسنانه تصطكّ من فوق الشراشف التي تبدو له مبتلّة. وكان يُخيّل إليه أنّ البيت واسع والأصوات المألوفة التي يسمعها تتّسع حتى اللانهاية كما لو أنّها لم تكن تلتقي جدارًا يضع حدًّا لارتجاعاتها. كان يسمع البحر كاندفاق ماء وحصى، وخفقان الليل وراء زجاجه الكبير، ونباح الكلاب في المزارع البعيدة. وأحسّ بالحرارة، فألقى بالأغطية، ثم أحسّ بالبرد، فأعادها. وفي هذا التأرجح بين عذابين، وذلك الاسترخاء وهذا القلق الذي كان ينتزعه من النوم، وعى فجأة أنّه كان مريضًا. وعراه ضيق إذ فكّر أنّه قد يموت في هذه الحالة من اللاوعي، ومن غير أن يستطيع النظر أمامه. وفي القرية قُرع جرس الكنيسة، من غير أن يستطيع معرفة عدد الدقّات. لم يكن يريد أن يموت كمريض. بالنسبة له على الأقلّ، لم يكن يريد أن يكون المرض ما هو غالبًا، إنحالاً وانتقالاً نحو الموت. إنّ ما كان يودّه بعدُ بلاوعي، إنّما هو لقاء حياته، وهي مليئة دمًا وصحّة، مع الموت، وليس مواجهة الموت مع ما كان الآن أشبه بالموت.

ونهض، فجذب بجهد مقعدًا نحو النافذة وجلس وهو يغطّي نفسه. وخلف الستائر الخفيفة، في الأمكنة التي لم تكن الثنايا تكثّف فيها القماش، كان يرى نجومًا. تنفّس طويلاً وشدّ على

ذراعيْ مقعده ليهدّئ يديه اللتين كانتا ترتجفان. كان يريد أن يستعيد صفاءه.

وكان يفكّر: «هذا ممكن». وفي الوقت نفسه، يفكّر بأنّ الغاز ما يزال مشتعلاً في المطبخ فكان يردّد: «هذا ممكن». كان الصفاء هو أيضًا صبرًا طويلاً، كلّ شيء يمكن اكتسابه والحصول عليه. وكان يضرب بقبضته ذراعي مقعده. إنّ المرء لا يولد قويًّا، أو ضعيفًا أو متطوّعًا، بل هو يصبح قويًّا، ويصبح واعيًا. إنّ المصير ليس في الإنسان بل حول الإنسان. ولاحظ إذ ذاك أنّه كان يبكي. كان ضعف غريب، نوع من الجبن منبثق من المرض، يعيده إلى الطفولة وإلى دموعه. فكان يحسّ بردًا في يديه وقرفًا كبيرًا في القلب. وكان يفكّر بأظافره، وتحت ترقوته دحرج غددًا بدت له ضخمة. وفي الخارج كان كلّ ذلك الجمال المنتشر على العالم.

لم يكن يريد أن يغادر حسّه للحياة وحرصه عليها. كان يفكّر بتلك الأمسيات في مدينة الجزائر حيث يصعد في السماء الخضراء ضجيج الرجال وهم يخرجون من المصانع على نداء الصفّارات. بين مذاق الأبسنت، والزهور البرّيّة في الخرائب وعزلة البيوت الصغيرة المحاطة بالسرو في «الساحل»، كانت تُحاك صورة لحياة كان الجمال والسعادة ينتزعان فيها من اليأس وجهه، وكان باتريس يجد فيها نوعًا من الأبديّة الهاربة. لم يكن يرغب في أن يترك هذا ولا أن تكون هذه الصورة قادرة على الاستمرار من دونه. وامتلأ بالتمرّد والشفقة، فرأى إذ ذاك وجه زغرو متّجهًا نحو النافذة. وسعل طويلاً. كان يتنفّس بمشقّة. وكان يختنق في ثياب الليل.

وكان يحسّ بالبرد، ويحسّ بالحرّ. كان يحترق بغضب كبير عكر، وكانت قبضتاه مضمومتين. ودمه كلّه يخفق خفقات كبيرة تحت جمجمته. كان نظره فارغًا، وكان ينتظر الرعشة الجديدة التي ستغمره من جديد في الحمّى العمياء. وجاءت الرعشة، فردّته إلى عالم رطب مغلق أغمضت فيه عيناه فأسكتت تمرّد الحيوان، الحريص على عطشه وجوعه. ولكن قبل أن ينام، أتيح له أن يرى الليل يبيضّ قليلاً خلف الستائر، وأن يسمع، مع الفجر ويقظة العالم، ما يشبه نداء كبيرًا من الحنان والأمل كان يبرّر بلا شكّ رعبه من الموت، ولكنّه في الوقت نفسه يطمئنه بأنّه سيجد مبرّرًا للموت في ما سبق أن كان مبرّره الكامل للحياة.

عندما استيقظ، كان النهار قد قطع شوطًا، وكان شعب كامل من العصافير والحشرات يغنّي في الحرّ. فكّر بأنّ لوسيان لا بدّ أن تأتي اليوم ذاته، وكان محطّمًا فعاد بمشقّة إلى سريره. وكان مذاق الحمّى في فمه وذلك الضعف الذي يُحيل الأشياء في عينيّ المريض أكثر صلابة والكائنات أكثر إكراهًا. واستدعى برنار فحضر، منهمكًا على عادته وصموتًا، ففحص نبضه، وخلع نظّارتيه ليمسح زجاجهما. وقال: «حالة سيّئة». ثم حقنه حقنتين. عند الثانية، بالرّغم من أنّ مرسو كان قليل الرهافة، فقد أُغمي عليه. وعندما استعاد وعيه، كان برنار يمسك قبضته بيد وساعته باليد الأخرى، وكان يتأمّل التقدّم المهتزّ لعقرب الثواني.

قال برنار:

ـ أنت ترى، إغماء لربع ساعة. إنّ قلبك يستسلم. وقد تموت، في إغماءة جديدة.

أغمض مرسو عينيه. كان منهوكًا، شفتاه بيضاوان وجافّتان، وتنفّسه يصفر.

قال:

ـ برنار.

ـ نعم.

ـ لا أريد أن أموت بإغماءة. إنّني بحاجة إلى أن أرى بصفاء. أنت تفهمني.

قال برنار:

ـ نعم.

وأعطاه عدّة جرعات: «إذا أحسست بالضعف، فاكسرها وابلعها. إنّه «أدرينالين»».

والتقى برنار، وهو خارج، لوسيان التي كانت قادمة.

ـ إنّكِ على عادتك فتّانة.

ـ هل باتريس مريض؟

ـ نعم.

ـ وهل وضعه خطير؟

قال برنار:

ـ لا، إنّه بحالة جيّدة جدًا. (وقبل أن يذهب أضاف) في الواقع، أنصحك أن تتركيه وحيدًا قدر الإمكان.

قالت لوسيان:

ـ آه، لا أهمّيّة لذلك إذن.

طوال اليوم كلّه، كان مرسو يختنق. وأحسّ مرّتين بالفراغ البارد العنيد يجتذبه إلى إغماءة جديدة، ومرّتين سحبه الأدرينالين من هذه الغطسة السائلة. وطوال النهار، نظرت عيناه الداكنتان إلى القرية الرائعة. حوالى الساعة الرابعة، بزغ زورق كبير أحمر على البحر وتضخّم شيئًا فشيئًا وهو يرشح شمسًا وماء وقشورًا.

كان بيريز واقفًا يجذّف بانتظام. وجاء الليل إذ ذاك بسرعة. أغمض مرسو عينيه، ولأوّل مرّة منذ الليلة الماضية، ابتسم. كان قد لزم الصمت. وكانت لوسيان في غرفته منذ لحظة، قلقة بغموض، فانكبّت عليه وقبّلته. قال مرسو:

ـ اجلسي. تستطيعين البقاء.

قالت لوسيان:

ـ لا تتكلّم. إنّ هذا يتعبك.

وأتى برنار، فحقن حِقَنًا وذهب. وكانت غيوم كبيرة حمراء تمرّ بهدوء في السماء.

قال مرسو بجهد، وهو غاطس في مخدّته وعيناه شاخصتان إلى السماء:

ـ كانت أمّي تقول لي عندما كنت صغيرًا إنّ أرواح الأموات هي التي كانت تصعد إلى السماء، وكنت منذهلاً أن تكون لي روح حمراء. والآن أدرك أنّ ذلك في أغلب الأحيان إنّما هو وعد ريح. ولكنّه كذلك رائع.

وبدأ الليل. كانت الصور تتقدّم. حيوانات كبيرة خرافيّة تهزّ رأسها فوق المناظر الصحراويّة. أبعدها مرسو بلطف من أعماق

حمّاه. كان يفسح المجال فقط لوجه زغرو بأخوّته الدامية. إنّ الذي سبق أن أعطى الموت سيموت. وكما كان الأمر بالنسبة لزغرو، كانت النظرة الواعية التي يلقيها على حياته نظرة رجل. إلى الآن كان قد عاش. والآن يمكن للناس أن يتحدّثوا عن حياته. ومن هذا الانطلاق الكبير الجامح الذي كان قد حمله إلى الأمام، ومن الشعر الهارب خالق الحياة، لم يكن يبقى الآن سوى الحقيقة التي لا تجاعيد فيها والتي هي نقيض الشعر.

ومن جميع الأشخاص الذين كان قد حملهم في ذاته ككلّ إنسان في بداية هذه الحياة، من هذه الكائنات التي كانت تمزج جذورها من غير أن تختلط، كان يدرك الآن أيّها قد كان: وهذا الاختيار الذي يخلقه القدر في الإنسان كان قد حقّقه في الوعي والشجاعة. وهنا كانت تكمن سعادته كلّها في أن يعيش وأن يموت. هذا الموت الذي كان قد نظر إليه بهلع وحشي، كان يدرك أنّ الخوف منه يعني الخوف من الحياة. كان الخوف من الموت يبرّر تعلّقًا لا حدود له بما هو حيّ في الإنسان. وجميع الذين لم يسبق لهم أن صفّوا الأعمال الحاسمة ليرفعوا حياتهم، جميع أولئك كانوا يخافون العجز ويمجّدونه، أولئك جميعًا كانوا يخافون الموت، بسبب العقوبة التي كان يحملها إلى حياة لم يسبق لهم أن امتزجوا بها. لم يكونوا قطّ عاشوا بما فيه الكفاية، لكونهم لم يعيشوا قطّ. وقد كان الموت أشبه بحركة تحرم من الماء إلى الأبد المسافر الذي كان قد بحث عبثًا ليسكّن ظمأه. أمّا بالنسبة للآخرين، فقد كان الموت الحركة المقدّرة الحنون التي تمحو وتنفي، باسمة للعرفان مثل بسمتها للتمرّد.

وأمضى يومًا وليلة جالسًا على سريره، ذراعاه على طاولة السرير، ورأسه بين ذراعيه. ولم يكن يستطيع أن يتنفّس وهو مضطجع. وإلى جانبه، كانت لوسيان جالسة تراقبه من غير أن تنبس بكلمة. وكان مرسو ينظر إليها أحيانًا. ويفكّر بأنّ أوّل رجل سيأخذ قامتها من بعده، سيجعلها ترتخي.

إنّها ستمنح نفسها وهي متجمّعة كلّيًا في نهديها كما منحت نفسها له من قبل، وسيستمرّ العالم في دفء شفتيها المنفرجتين. وكان أحيانًا يرفع الرأس وينظر عبر النافذة. لم يكن حليقًا. وكانت عيناه المحمرّتان عند جوانبهما، الغائرتان بعمق، قد فقدتا ألقهما الداكن، وكانت وجنتاه المجوّفتان الشاحبتان تحت الزغب المزرقّ تبدلانه تمامًا.

كانت نظرته، نظرة القطّ المريض، تستقرّ على الزجاج. كان يتنفّس ويلتفت نحو لوسيان. عندها كان يبتسم. وفي هذا الوجه الذي يهرب وينهار في كلّ جهة، كانت تلك الابتسامة القاسية الواضحة تخلق قوّة جديدة ورصانة جذلى.

كانت لوسيان تقول بصوتها المنطفئ: «هل تتحسّن»؟

فيقول: «نعم».

وكان يرجع من بعدها إلى ليل ذراعيه.

وعند تخوم قوّته وصموده، كان يلتقي لأوّل مرّة ومن الداخل، رولان زغرو الذي كانت ابتسامته تغيظه كثيرًا في بادئ الأمر. وكان تنفّسه القصير المتدافع يترك على رخام طاولة الليل بخارًا رطبًا يردّ له حرارته. وفي هذا الدفء غير الرديء الذي كان يصعد نحوه، كان يحسّ إحساسًا أعمق بالطرف المثلج لأصابعه وقدميه. إنّ هذا

بالذات كان يكشف حياة، وفي هذه الرحلة من البرد إلى الحرّ، يستعيد الحماس الذي كان قد تملّك زغرو، شاكرًا «الحياة التي تسمح له بأن يحترق بعد». وكان يحسّ نفسه مأخوذًا بحبّ عنيف أخوي لهذا الرجل الذي كان قد شعر أنّه بعيد جدًّا عنه، وكان يدرك أنّه، بقتله، قد عقد معه عرسًا يشدّه به إلى الأبد. وتلك المسيرة الثقيلة للدموع التي كانت في نفسه كمذاق مختلط للحياة والموت، كان يدرك أنّها كانت مشتركة بينهما. وفي جمود زغرو بالذات أمام الموت، كان يجد من جديد الصورة الخفيّة القاسية لحياته الخاصّة. وكانت الحمّى تساعده في ذلك، ومعها ذلك اليقين المحمّس الذي يملكه ليحتفظ بوعيه حتى النهاية وليموت وعيناه مفتوحتان. لقد كانت عينا زغرو هما أيضًا مفتوحتين في ذلك اليوم، وكانت دموع تسيل منهما، ولكنّه كان آخر ضعف لرجل لم يكن له نصيب في حياته. وما كان باتريس يخشى هذا الضعف. ففي خفقات دمه المحموم الذي كان يتوقّف دائمًا على بعد بضعة سنتمترات من حدود جسده، كان ما يزال يدرك أنّ هذا الضعف لن يكون ضعفه. ذلك أنّه، هو، كان قد قام بدوره، وكان قد أتمّ واجب الإنسان الوحيد الذي يتلخّص في أن يكون سعيدًا. ليس لمدّة طويلة بلا شكّ. ولكن لا شأن للوقت بذلك، إنّه لا يمكن أن يكون إلّا عقبة، وهو آنذاك ليس شيئًا. كان قد هدم العقبة، وهذا الأخ الداخلي الذي كان قد ولّده في ذاته، سيّان أن يكون سنتين أو عشرين.

نهضت لوسيان، وغطّت من جديد كتفي مرسو اللتين كان الغطاء قد انزلق عنهما. وارتعش تحت هذه الحركة. منذ اليوم الذي كان فيه قد عطس في الساحة الصغيرة أمام دارة زغرو، حتى

هذه الساعة، كان جسده قد خدمه بإخلاص وفتحه على العالم. ولكنّه كان، في الوقت نفسه، يتابع حياة خاصّة منفصلة من الإنسان الذي كان يمثّله. لقد تابع خلال هذه السنوات تحلّلاً بطيئًا. أمّا الآن، فقد أتمّ انحناءته ووقف مستعدًّا أن يترك مرسو وأن يُعيده إلى العالم. وفي هذه الرعشة الفجائيّة التي كان مرسو يعيها، كان يسجّل مرّة أخرى هذا التواطؤ الذي سبق أن منحهما كثيرًا من المسرّات.

وبهذه الصفة فقط، كان مرسو يعتبر هذه الرعشة فرحة. كان هذا، في وعيه، ما كان يجب، بلا تضليل، وبلا جبن ـ وحيدًا أمام نفسه ـ وجهًا لوجه مع جسده ـ وعيناه منفتحتان على الموت. كان الأمر يتعلّق بقضيّة بين رجال. لا شيء، لا حبّ ولا ديكور، بل صحراء لانهائيّة من الوحدة والسعادة يلعب فيها مرسو آخر أوراقه. كان يحسّ نفسه يضعف. وقد تنشّق جرعة هواء، وبهذه الحركة هدرت جميع أراغن صدره. كان يحسّ ربلتي ساقيه باردتين جدًّا ويديه عديمتي الإحساس. وكان النهار يطلع.

امتلأ النهار الذي بزغ بالعصافير والنداوة. وارتفعت الشمس بسرعة، وبقفزة وصلت فوق الأفق. واكتست الأرض بالذهب والحرارة. وفي الصباح كانت السماء والبحر يتلاطخان بالأضواء الزرقاء والصفراء، ببقع كبيرة واثبة. وكانت ريح خفيفة قد هبّت، ومن النافذة كان هواء يحمل مذاق الملح يأتي ليرطّب يديْ مرسو. وعند الظهر توقّفت الريح، وتفتّح النهار كثمرة ناضجة، وعلى امتداد العالم كلّه، سال عصيرًا دافئًا خانقًا، وسط موسيقى زيزان مفاجئة. وتغطّى البحر بهذ العصير المذهّب كما يتغطّى بزيت،

وأعاد إلى الأرض المحروقة بالشمس هبّة حارّة فتحته وصعدت عطورًا من الأبسنت وندى البحر والحجارة الحارّة. ومن سريره، لاحظ مرسو هذه الصدمة وهذه المنحة، وفتح عينيه على البحر الشاسع المنحني، المتوهّج المأهول بابتسامات آلهته. ولاحظ فجأة أنّه كان جالسًا على سريره وأنّ وجه لوسيان قريب جدًّا من وجهه. وكان يصعد في داخله بهدوء، ابتداء من البطن، ما يشبه حصاة تسير حتى حلقه. وكان يتنفّس بسرعة متزايدة، مستفيدًا من هذه المسارات، وكان هذا الشيء يصعد دائمًا. نظر إلى لوسيان فابتسم من غير تشنّج. وكانت هذه الابتسامة تصدر من الداخل. وانقلب على سريره فأحسّ بالصعود البطيء في داخله. نظر إلى شفتيْ لوسيان المكتنزتين، ومن خلفهما، ابتسامة الأرض. كان ينظر إليهما النظرة نفسها، بالرغبة ذاتها.

وفكّر: «بعد دقيقة، بعد ثانية». وتوقّف الصعود. وحجرًا بين الأحجار، عاد في فرحة قلبه إلى حقيقة العوالم الجامدة.

حين صدرت هذه الرواية في باريس احتلّت بسرعة رأسَ قائمة أنجح الكتب. ولم يسبق لهذه الرواية أن نُشرت من قبل، وقد استخرجتها زوجةُ البير كامو من أوراقه. وبالرغم من أنّ هناك شبهًا في الأسماء بين بطلي "الغريب" و"الموت السعيد" فهذه الأخيرة تختلف عن تلك كلَّ الاختلاف، وموضوعُها هو البحث العنيد عن السعادة، ولو كان ثمن ذلك ارتكاب جريمة. وأحداث الرواية تتناول تجربةَ شابّ يعاني مصاعبَ كثيرة على صعيد الفقر والمرض والحب، ويعيش حالاتِ صراع نفسية ليس هناك أبرع من كامو في تصويرها.

ISBN: 978-9953-89-375-4

9 789953 893754

دار الآداب

هاتف: 01/795135 - 01/861633

ص.ب: 11-4123 بيروت، لبنان